آيات تحويل القبلة

دراسة تحليلية ودروس تربوية

دكتور/ أحمد عبد السلام أبو الفضل

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأدومان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، ،

فهذا ملخص بحث بعنوان: « آيات تحويل القبلة دراسة تحليلية، ودروس تربوية».

وقد انتظم هيكل هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثمانية مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة ففيها بيانٌ لمحتوى البحث، وأسبابُ اختياري له، والمنهج المتبع في دراسته.

ثانياً: التمهيد وفيه خلاصة عن قصة تحويل القبلة التي تدور حولها دراسة الآيات.

ثالثا: خطة البحث، وقد اشتملت على تفسير آيات تحويل القبلة آيةً آيةً وقد بلغ مجمُوعُها تسعَ آياتٍ أفردتُ لكل آية منها مبحثا خاصا، إلا الآية الخامسة والسادسة فقد جعلتهما في مبحث معاً، وأتبعتُ كلَّ آيةٍ بدروسها المستفادةِ منها؛ ليكون اللفظُ للفظِ أوفق، والمعنى للذهن أقربَ وألصق، فجاءت على النحو التالي:

- أذكر الآية أولاً في عنوان المبحث.
- مناسبة الآية لما قبلها
- سبب نزولها إن وجد
- معاني مفرداتها
- الأحكام والمسائل المتعلقة بها
- المعنى العام للآية
- ذكر الدروس التربوية المستفادة منها مفصلة
- الخاتمة، وفيها نتائجُ البحث، وثبتُ مراجعه، وفهرسُ المحتويات.

summary in English:

Praise be to Allah ،Lord of all creation ،accomplish and permanently prayers and peace be upon our Prophet Muhammad and his family and all his companions.

And then، This is a Research summary entitled: "Verses of the Qiblah change an analytical study and educational lessons. "

The structure of the research was organized into an introduction ،a foreword ، nine researches ،and a conclusion.

As for the introduction ،it contains an indication of the study content ،optional reasons for it and the methodology of the study.

Second: The preamble contains a summary of the Qiblah conversion story ، which is the study of verses.

Third: The research plan ،which included the interpretation of the verses of converting the Qiblah verse by verse ،the total of which reached nine verses ، singled out for each verse of a special topic ،except for the fifth and sixth verses. Closer and paste ،it came as follows:

First mention the verse in the topic title.

- The verse is appropriate for the preceding

The reason for its descent ،if any Meanings of its vocabulary Judgments and related matters

- The general meaning of the verse

List detailed lessons learned

Fourth: Conclusion ،which includes the results of the research ،proved its review ،and indexed the contents.

المقدمة

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، وصاحب الطول والإنعام. . . أنعم علينا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأنزل علينا القرآن تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وجعله نورا يهدي به من يشاء من عباده، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(١).

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين، المبعوث بخير دين سيدنا محمد بن عبد الله، خير خلق الله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين المباركين، وعلى صحابته الكرام الميامين، وعلى من تبعهم وترسم خطاهم وسلك مناهجهم إلى يوم الدين، وعلينا معهم بكرمك وجودك يا أكرم الأكرمين يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

أما بعد، ،

فإن علم تفسير القرآن الكريم هو أشرف العلوم وأعلاها منزلة؛ وذلك لتعلقه بأشرف الكتب وأجلِّها وأعزِّها وهو القرآن الكريم كتاب الله تعالى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢).

لذا كان من أجل النِّعم على العبد أن يتدبرَ في آيات كتاب الله تعالى لاستجلاء هِداياته، ولاستخراج كنوزه ودرره. . من الحِكَم والأحكام، والألفاظ والمعاني، والدروسِ التي تستفاد منها، والتي تتولد وتتجدد، ولا تنتهي ولا تتبدد، حتى يرثَ اللهُ تعالى الأرض ومَن عليها تصديقاً لوعده تعالى بحفظ كتابه الذي« لا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ولا يَخْلَقُ عن كَثْرَةِ الرَّدِّ»(٣).

وهذا هو ما دفع الرعيلَ الأَّول من سلفنا الصالح، وأئمتنا الفضلاء، وعلمائنا الأجلاء أن يخوضوا في معاني القرآن الكريم، وأن يعكفوا على دراسته لاستنباط أحكامه، والوقوفِ على قيمه وآدابه، أملاً في إزكاء العقول، وتزكية النفوس المؤمنة بها، وطمعاً في الهدايةِ القويمة بالقرآن لأنفسهم أولاً، ولجميع خلق الله ثانياً، رجاءَ الأجر الكبير الذي وعد الله به في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٤)، وتحقيقاً للخيرية المنوطةِ بهذا العمل على لسان خيرِ البرية صلى الله عليه وسلم« خَيْرُكُمْ من تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »(٥).

ولقد بذل هؤلاء العلماء على مر الأزمانِ والعصورِ جهوداً مُضْنيةً حتى أنتجوا تراثاً ضخماً شهد لهم به القاصي والداني، والموافقُ والمخالفُ، والعدو والصديقُ، والأولُ والآخرُ، حتى قيل: « ما ترك الأولُ

١ – سورة فصلت، الآية: ٤٢.

٢ – سورة النور، من الآية: ٤٠.

٣ – سنن الدارمي ٢/٥٢٣.

٤ – سورة الإسراء، الآية: ٩.

٥ – صحيح البخاري، كِتَاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب خَيْرُكُمْ من تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، رقم٤٧٣٩.

للآخر شيئا»[١]، وإن كان هذا القولُ لا يستقيمُ إلا على سبيلِ المبالغةِ وبلوغِ حدِّ الكثرة في التأليف والتصنيف؛ وذلك حتى لا يُغلق بابُ الفهمِ والتدبرِ والنظرِ في الآيات لتصحيح ما وقع في تأويلها وتفسيرها من خطأ واردٍ على البشر، أو لترجيح معنى لم يكن مناسباً لمن غَبَر، أو لظهور علومٍ عصريةٍ تتجددُ بها المعاني والعِبَر. . . أو غيرِ ذلك مما يفتح اللهُ تعالى به على أربابِ البصائر والفِكَر.

وهذا هو ما شجعنني على الإقدام على هذه الدراسة المتأنية لآيات تحويل القبلة الواردة في كتاب الله تعالى، لاستجلاء معانيها، ولاستخراج ما فيها من دروس تربوية مستفادة، وهداياتٍ ربانيةٍ لألفاظها ومعانيها مُنقادة.

خاصة وأن أكثر المفسرين لم يفردوا ما يستفاد من الآيات من دروس وهدايات عقب تفسيرهم لها، وإن لم تخل التفاسير الموسوعية من ذلك في عباراتٍ ضمنية مجملة قد تكون غيرَ ظاهرة؛ لتناثرها وسط هذا الموج الهادر من المعاني والعلوم النوادر.

وكنتُ كلما قرأت هذه الآيات التي نزلت في شأن تحويل القبلة أمعنتُ التأملَ فيها وأرى أنها جديرة بإفرادها بالدراسة لفهم أحكامها ومعانيها، ولترجيحٍ بين الأقوال الواردة فيها، ولاستخراج دروسها ومراميها، بما يفيد المسلمَ بل المجتمعَ الإنساني كله.

ولهذا أقدمتُ على هذه الدراسة سائلاً المولى عَزَّ وجَلَّ أن يُعينني عليها بالإخلاص والتوفيق، والترتيب والتنسيق، للإسهام بجهد متواضع أَشْرفُ به في خدمة كتاب الله عز وجل، وأن يوفقني لجمع ما فيها من دروس تفيدني والمسلمين والناس أجمعين، في الدنيا بالعمل الصالح والخلق الجميل، وفي الآخرة بالفوز والثواب الجزيل إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وقد جاء منهجي في هذه الدراسة على النحو التالي:

أولاً: المقدمة وفيها بيان لمحتوى هذا البحث، وأسباب اختياري له ومنهج دراسته.

ثانياً: التمهيد وفيه خلاصة عن قصة تحويل القبلة التي تدور حولها دراسة الآيات.

ثالثا: خطة البحث

---

١ – هذا القول ردَّه العلماء حتى قالوا« ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم: « ما ترك الأول شيئا» وقال الجاحظ: « إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح»، وقال حاجي خليفة: « واعلم أن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات الانظار لا تنتهي إلى غاية، بل لكل عالم ومتعلم منها حظ يحرزه في وقته المقدر له، وليس لأحد أن يزاحمه فيه؛ لأن العلم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر، والعلوم منح إلهية ومواهب صمدانية، فغير مستبعد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما لم يدخر لكثير من المتقدمين، فلا تغتر بقول القائل: ما ترك الأول للآخر، بل القول الصحيح الظاهر «كم ترك الأول للآخر » فإنما يُستجاد الشيء ويُسترذل لجودته ورداءته، لا لقدمه وحداثته. . . إلى آخر ما قال: والأقوال الواردة في نقد هذا القول كثيرة جداً.

ينظر: معجم الأدباء ٤٧٦/٤، كشف الظنون ٣٩/١.

وقد اشتملت على تفسير آيات تحويل القبلة آيةً آيةً، وقد بلغ مجمُوعها تسعَ آياتٍ، أفردتُ لكل آية منها مبحثا خاصا بها، إلا الآية الخامسة والسادسة فقد جعلتهما معا في مبحث واحد هو المبحث الخامس، وأتبعتُ كلَّ آيةٍ بدروسها المستفادةِ منها؛ ليكون اللفظُ للفظِ أوفق، والمعنى للذهن أقربَ وألصق، فجاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ. . . ﴾.

المبحث الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا. . . ﴾.

المبحث الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ. . . ﴾.

المبحث الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ. . . ﴾.

المبحث الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. . . ، حتى قوله تعالى:. . . فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾.

المبحث السادس: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ. . . ﴾.

المبحث السابع: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ. . . ﴾.

المبحث الثامن: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ. . . ﴾.

المنهج المتبع في البحث:

جمعت في هذا البحث بين المنهج التحليلي القائم على دراسة النصوص واستخراج ما فيها من دروس وعبر، والمنهج النقدي حيث أوازن بين الآراء المختلفة محاولا الجمع أو الترجيح بينها حسبما تقتضيه قواعد الجمع والترجيح، متبعا الخطوات التالية:

- أذكر الآية أولاً في عنوان المبحث.
- مناسبة الآية لما قبلها
- سبب نزولها إن وجد
- معاني مفرداتها
- الأحكام والمسائل المتعلقة بها
- المعنى العام للآية
- ذكر الدروس المستفادة منها مفصلة

رابعاً: الخاتمة، وفيها نتائجُ البحث، وثبتُ مراجعه، وفهرسُ المحتويات.

هذا ولا يخلو بحثٌ مِن خَلَل، ولا كلام بشرٍ من زَلَل، إلا من عصمهُ الله تعالى، وحسبي أني اجتهدتُ في خدمة كتاب الله –عز وجل– وهذا شرفٌ لا يَعلوه شرف، ومكانٌ لا يدانيه مكان، وفضلٌ حاصلٌ لصاحبه

مَهْمَا كان، فَلَئِن حُرمتُ أن أكونَ مجتهداً مُصيباً له أجران، فلن أُحْرمَ أجرَ مجتهدٍ مخطئٍ له أجرٌ على جَهده من الكريم المنان.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به ووالدي وذريتي ومن أفاد منه إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د: أحمد عبد السلام أبو الفضل

تمهيد: خلاصة في قصة تحويل القبلة

لم تتفق كلمةُ علماءِ المسلمين حولَ الصلاة التي كان يصليها الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل فرضها خمساً ليلة الإسراء والمعراج، إلا في أنهم كانوا يصلون قطعاً، فالآياتُ المكيةُ التي نزلت في أول البعثة تدل على أن أصل وجوب الصلاة كان ثابتاً في مكةَ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾(١)، قال الحسن– رضي الله عنه–: هي صلاة كانت قبل أن تُفرض الصلوات الخمس حين كانت الصلاة ركعتين غُدوة، وركعتين عَشِيَّة(٢)، وكقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾(٣)، وكقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤)، فجميع هذه الآيات مكية.

يقول الإمام ابن كثير– رحمه الله تعالى–: « وَكَانَتِ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ ثِنْتَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وُجُوبُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَلَكِنْ مِنْهُنَّ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، فَهُمَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ»(٥).

وقال الإمام ابن حجر– رحمه الله تعالى–: « فإنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الإسراء يُصلي قطعا، وكذلك أصحابُه، لكن اختُلف هل افترض قبل الخمس شيءٌ من الصلاة أم لا؟ فيصح على هذا قول من قال إن الفرض أولاً كان صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، والحجةُ فيه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ ونحوها من الآيات»(٦).

وقال أيضا: « ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمرُ به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم إن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نُسخت بقوله تعالى ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾(٧) فصار الفرضُ قيامَ بعض الليل ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس»(٨).

---

١ – سورة غافر، من الآية: ٥٥.

٢ – تفسير القرطبي ١٥/٣٢٤.

٣ – سورة ق، الآية: ٣٩.

٤ – سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

٥ – تفسير ابن كثير ٧/٤٠٩.

٦ – فتح الباري ٨/٦٧١.

٧ – سورة المزمل، من الآية: ٢٠.

٨ – فتح الباري١/٤٦٥.

قلت: ومما يؤيد وجود صلاة قبل ليلة الإسراء ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ليلة الإسراء ببيت المقدس ركعتين، كما ثبت فيه أيضا أنه صلى في تلك الليلة بالأنبياء إماماً(١)، وهذا هو القدر المقطوع به المجمع عليه من ذلك كله.

ثم فرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة في ليلة الإسراء والمعراج فوق السماوات السبع كما ورد في حديثها المشهور المتفق عليه عن أنس –رضي الله عنه– وفيه: « فَأَوْحَى الله إليَّ ما أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً في كل يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إلى مُوسَى عليه السلام فقال: ما فَرَضَ رَبُّكَ على أُمَّتِكَ؟ قلت: خَمْسِينَ صَلَاةً، قال: ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. . . فقال: « فلم أَزَلْ أرجع بين رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السَّلَام حتى قال: يا محمد إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً»(٢).

ثم نزل جبريلُ –عليه السلام– وعلَّم النبي –صلى الله عليه وسلم –مواقيتَ الصلاة في صبيحة الليلة التي فُرضت فيها الصلاة عند الزوال، أي بدأ بصلاة الظهر.

وقد كانت الصلوات الخمس في أول فرضها ركعتين إلا المغرب، ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم زيدت صلاة الحضر ركعتين إلا المغرب؛ لأنها وتر النهار، والفجر؛ لطول القراءة فيها فتركتا على حالهما، وأقرت الصلاة الأولى في السفر كما روى الشيخان عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: «فُرِضَتِ الصَّلاَةُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا، وَتُرِكَتْ صَلاَةُ السَّفَرِ عَلَى الأُولَى»(٣)، وفي صحيح مسلم أنها قالت: « فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ»(٤).

وقد ظل النبيُ صلى الله عليه وسلم في مكة يتجه في صلاته إلى بيت المقدس حتى هاجرَ إلى المدينة، وكان ذلك بأمر من الله تعالى واجباً عليه على ما عليه ابن عباس –رضي الله عنهما– والجمهور؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾(٥)، وهو الراجح خلافا لمن ذهب إلى أن توجهه إلى بيت المقدس كان باجتهاده أو باختياره.

---

١ – صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إلى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، رقم ١٦٢.

٢ – صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار، بَاب الْمِعْرَاجِ، رقم ٣٦٧٤، صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إلى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، رقم ١٦٢.

٣ – صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار، بَاب الْمِعْرَاجِ، رقم ٣٦٧٤، صحيح مسلم كِتَابُ الصلاة، بَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، رقم ٦٨٥.

٤ – صحيح مسلم كِتَابُ الصلاة، بَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، رقم ٦٨٥.

٥ – سورة البقرة، من الآية: ١٤٣.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى حينئذ أن يكون اتجاهه أثناء صلاته إلى الكعبة وإلى بيت المقدس معاً، فيصلي بين الركنيين اليمانيين فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فيستقبلهما معاً.

فلما هاجر النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة تعذر عليه الجمع بين القبلتين، فلم يكن أمامه سوى الاتجاه إلى بيت المقدس، فظل يتجه إليه في صلاته ستةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عشرَ شهرًا على ما رواه البخاري[١]- رحمه الله تعالى- وقلبُه متعلقٌ بالكعبة قِبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، والتي تربى في رِحابها وعاش زمناً طويلاً في كنفها، فكان صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى الله تعالى بقلبه في طلبها، مُقَلِّباً وجهه في السماء انتظاراً للوحي فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[٢]، آمراً إياه صلى الله عليه وسلم بأن يتوجه إلى الكعبة المكرمة[٣].

ولم يكن لهذا الحدثُ أن يَمُرَّ مرور الكرام على المتربصين برسول الله صلى الله عليه وسلم والدعوة من اليهود والمشركين والمنافقين الذين يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالا قالوا أو مجالا جالوا، بل إنهم ليجدون في ذلك فرصتهم السانحةَ للانقضاضِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته بالتشكيك والاستفهام سخرية واستهزاءً في محاولة جديدة من محاولتهم المستمرة إلى اليوم للنيل من الإسلام ونبيِّه –صلى الله عليه وسلم- وأهله، دون كلل منهم أو ملل، ودون جدوى أيضاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ دينه وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم على مر العصور وكر الدهور حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فليتهم يعلمون ذلك ويعرفون أن حفظ دين الإسلام وكتابه ونبيه صلى الله عليه وسلم معجزةٌ من معجزاته المتلوة في آياته قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ

---

١ – صحيح البخاري، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: الصَّلاَةُ مِنَ الإِيمَانِ، رقم: ٤٠، من حديث البراء رضي الله عنه.

٢ – سورة البقرة، من الآيتين: ١٤٣، ١٤٤.

٣ – اختلف في وقت تحويل القبلة من السنة الثانية من الهجرة، فالمشهور أن ذلك كان في النصف من شهر شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، قال ابن كثير: « وحكى هذا القول ابن جرير من طريق السدي فسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال الجمهور الأعظم: إنما صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة».

وقيل كان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، وصحح هذا القول ابن حجر في فتح الباري وعزاه إلى الجمهور، قال ابن كثير: « وبه قال قتادة وزيد بن أسلم وهو رواية عن محمد بن اسحاق وقد روى أحمد عن ابن عباس ما يدل على ذلك وهو ظاهر حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه-.

ينظر: البداية والنهاية ٢٥٢/٣، فتح الباري ٩٧/١.

٤ – سورة التوبة، آية: ٣٢.

نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣]. أي: يحميك ويمنعك.

وقد تحقق وعد الله هذا للمسلمين فما زلنا نرى حفظ الله تعالى لدينهم وكتابهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم بانتشار الإسلام في ربوع الدنيا، وسطوع شمسه في العالمين، رغم كيد الكائدين، وحقد الحاقدين، ومكر الماكرين، بتساقط السفهاء والمغرضين يوماً بعد يوم، وواحداً تلو الآخر، مهما بدلوا مواقفهم، ووزعوا أدوارهم، وغيروا أسماءهم، فلن يزول عنهم وصف الله تعالى لهم بالسفهاء والجهلاء من خفاف الأحلام والعقول، وإن ظهروا في صدر المفكرين والمثقفين وتستروا بأسماء المسلمين، فما مثلهم والإسلام إلا كقول الأول:

كناطحِ صخْرةٍ يوماً لِيُوهِنَـهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وأَوْهَى قَرْنَـهُ الوَعِلُ

ولذا فقد دفعني إلى دراسة هذه القصة« قصة تحويل القبلة» ما لمسته فيها من دروس وعبر وحقائق نحن في أمس الحاجة إليها في هذا العصر لنتعلم منها، ولنكون على قدم راسخة في الدفاع عن ديننا ونبينا ومقدساتنا ابتغاء وجه الله الكريم نسأل الله تعالى أن يحقق فينا ذلك، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والآن أشرع في المقصود، والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

١ – سورة الصف، آية: ٨.

٢ – سورة الحجر، آية: ٩.

٣ – سورة المائدة، آية: ٦٧.

استهلالٌ في ذكر الآيات القرآنية الواردة في قصة تحويل القبلة

يقول الله تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

«الآيات: ١٤٢-١٥٠ من سورة البقرة، وهي مدنية».

المبحث الأول: تفسير الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

- مناسبةُ الآيةِ الكريمةِ لِمَا قبلها

لمَّا سبق الكلامُ عن اليهود والنصارى وسفاهتهم في ادعائهم أنه لن يدخل الجنةَ إلا من كان هُوداً أو نصارى، وأن الأنبياء قبلهم- إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباطَ- كانوا على ملتهم هُوداً أو نصارى إبطالاً منهم للنسخ، وإنكاراً للإسلام، ومجادلتهم في دين الله تعالى، وإنكارُ الله تعالى عليهم ذلك﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ ووصفهم بأظلم الظالمين بها، وتهديدهم ووعيدهم بمجازاتهم عليها ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

اتصل الكلامُ هنا بذلك؛ حيث أعقبه ببيان سفاهةٍ أُخرى لليهود ومَن هُم على شاكلتهم وهي اعتراضهم على أمر الله تعالى في تحويل القبلة، وإنكارهم نسخها، كتماً للحق مع علمهم به، واتباعاً للهوى، ولذا وصف الله تعالى من اتبعهم بالظلم، كما هددهم بما هددهم به أولاً ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد اختزل الإمامُ الألوسي- رحمه الله تعالى- ذلك في عبارةٍ وجيزةٍ بليغةٍ فقال: « ومناسبةُ الآيةِ لمِا قبلها أنَّ الأولى قدحٌ في الأصول، وهذا في أمرٍ مُتعلقٍ بالفروع، وإنما لم يُعطف تنبيهاً على استقلالِ كُلٍ منهما في الشناعة»[2].

- سببُ نزولِ الآيةِ الكريمةِ

ذكر الإمام أبو الحسن الواحدي النيسابوري في كتابه أسباب نزول القرآن[3] بسنده عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُحِبُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى آخر الآية، فقال السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ – وَهُمُ الْيَهُودُ – مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»[4].

---

١ – سورة البقرة، من الآية: ١٤٠.

٢ – روح المعاني ١/٤٠٢.

٣ – أسباب نزول القرآن ص٤٢، الصحيح المسند من أسباب النزول ص٢١.

٤ – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كِتَاب التفسير، بَاب ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ من الناس ما وَلَّاهُمْ عن قِبْلَتِهِمْ التي كَانُوا عليها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي من يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ رقم ٤٢١٦، مسلم كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، بَابُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْقُدْسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، رقم ٥٢٧.

- **معاني المفردات**

- السفهاء جمع سفيه، والسفه والسفاه والسفاهة: ضد الحلم، وهي مصادر سَفِهَ يسفه، من باب تعب، وهو نقص في العقل أصله الخفة والحركة[١]، يقال: تسفَّهَتِ الرّياحُ الشيءَ: إذا حرَّكَتْه واستخفّته فطيَّرتْه، وسفه بالضم، وسفه بالكسر؛ أي صار سفيها، والجمع سُفهاء وسُفَّهٍ، وسِفَاهٍ[٢]، والمؤنث منه سفيهة، والجمع سَفَائِه، وَسَفِيهاتٍ.

وقيل السفه: الجهل، والسفيه: الجاهل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[٣] أي: الجهلاء.

- والمراد بالسفهاء في الآية الكريمة هم اليهود أولا قاله ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم، وقال السدي: « المراد بهم المنافقون»، وقال الزجاج: « المراد بهم كفار قريش»[٤].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى-: « وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ»[٥]، وهو الصحيح؛ لأن اليهود قالوا: قد التبس عليه أمره وتحير، وكانوا قد قالوا عندما توجه لبيت المقدس: استقبل قبلتنا وغدا يتبع ديننا.

وقال المنافقون مستهزئين: ما ولاهم عن قبلتهم.

وقال مشركوا مكة: قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم، فهم جميعا اشتركوا في هذا القول، وتحقق فيهم حكم القرآن عليهم ووصفه لهم.

- ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ أي: صرفهم وعدلهم، والاستفهام للإنكار والنفي، يقال في اللغة: « وَلَّى الشيءُ وتَوَلَّى إذا أدبر، وولَّى عنه: أعرض عنه، أو نأى عنه، أو عدل عنه، والمعنى هنا: أيُّ شيء صرفهم عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها يعني: بيت المقدس[٦].
- ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾ القبلة: فعلة من المقابلة، وقبلة كل شيء ما قابل وجهه وإنما هي فعلة بمنزلة الجلسة والقعدة من قول القائل: «قابلت فلانا إذا صرت قبالته أقابله فهو لي قبلة وأنا له قبلة إذا قابل كل واحد منهما بوجهه وجه صاحبه» [٧]، والمراد بها هنا بيت المقدس.
- ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط: الطريق، والسبيل والمسلك، والجمع: صرط، والصراط المستقيم، أي: الطريق القويم الذي لا عوج فيه، والمراد به هنا: طريق الحق[٨].

---

١ – لسان العرب ٤٩٧/١٣.

٢ – مختار الصحاح ص١٢٧.

٣ – سورة البقرة، من الآية: ١٣.

٤ – تفسير القرطبي ١٤٨/٢.

٥ – تفسير ابن كثير ٣٢٤/١.

٦ – المحكم والمحيط الأعظم ٤٦٠/١٠، لباب التأويل في معاني التنزيل ٨٧/١.

٧ – لسان العرب ٥٤٧/١١.

٨ – لسان العرب ٣٤٠/٧.

- **المسائل والأحكام**

١- في قوله تعالى: ﴿ سَيَقول السّفَهَاء﴾ تعبير بالفعل المضارع عن ما وقع في الماضي، أو إيراد للماضي بصيغة المستقبل، مع الإتيان بالسين التي تخلص الفعل للاستقبال بعد صلاحيته قبلها للحال، وذلك لاستحضار الصورة التي وقعت، وللدلالة على استمرار ذلك القول على ألسنتهم وتجدده على ألسنة غيرهم.

قال أبو حيان- رحمه الله تعالى-: « فَمَعْنَى قَوْلِهِ: سَيَقُولُ، أَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ على هذا القول، وإن كَانُوا قَدْ قَالُوهُ، فَحِكْمَةُ الِاسْتِقْبَالِ أَنَّهُمْ، كَمَا صَدَرَ عَنْهُمْ هَذَا الْقَوْلُ فِي الْمَاضِي، فَهُمْ أَيْضًا يَقُولُونَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ وَضَعَ الْمُسْتَقْبَلَ مَوْضِعَ الْمَاضِي. وَإِنَّ مَعْنَى سَيَقُولُ: قَالَ، كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَأَتَّى مَعَ السِّينِ لِبُعْدِ الْمَجَازِ فِيهِ. وَلَوْ كَانَ عَارِيًا مِنَ السِّينِ، لَقَرُبَ ذَلِكَ وَكَانَ يَكُونُ حِكَايَةَ حَالٍ مَاضِيَةٍ»(١).

وعلى ذلك فالآية متقدمة في التلاوة متأخرة في النزول بعد قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فإنها رأس القصة كما قال السمعاني، وقال أبو حيان بعد عزو هذا القول لابن عباس وغيره: « وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا وَيُصَحِّحُهُ حَدِيثُ الْبَرَاءِ الْمُتَقَدِّمُ، الَّذِي خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ»(٢).

وقد ذهب الإمام الزمخشري وغيره إلى أنه إخبار بما سيحدث قبل وقوعه؛ ليكون وقعه خفيفا على قلوب المسلمين عند حدوثه، وعلى هذا فالآية نزلت في موضعها، مخبرة بالغيب، مجيبة على قول المنكرين من السفهاء قبل صدوره منهم، وهو مذهب بعيد كما لا يخفى بالنظر إلى سبب النزول(٣).

٢- « أل» في قوله: ﴿ السّفَهَاء﴾ للاستغراق أي: سيقول هذا القول كل سفيه خفيف العقل، قليل الرشد في الدين والدنيا(٤).

والتعبير عنهم بالسفهاء مع كونهم في الظاهر عقلاء تقليل لشأنهم، وتحقير لقولهم الذي لا يقوله إلا كل متعنت ضال، كما أنك قد تصف إنسانا بالجنون لفعل غير رشيد وإن كان يندرج في زمرة العقلاء، أما المجنون حقيقة فلا يلام على قوله، ولا يؤاخذ على فعله.

ومن معاني السفه الجهل كما سبق، ولا شك أنه من لوازم السفه فهو مراد هنا أيضا.

٣- التعبير ب: « مِن» التبعيضية في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ للدلالة على أن القائل بعض الناس وليس جميعهم وعليه تكون « من» تبعيضيه، أو لأن السفه يكون في غير الناس- كما سبق- فتكون «من» بيانية، والأول أظهر، والمقصود بالناس: الكفرة منهم.

قال الإمام أبو السعود -رحمه الله تعالى-: « قوله تعالى: ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي: الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكي لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث، بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض

---

١ -البحر المحيط ٩/٢.

٢ - تفسير السمعاني ١٥١/١، البحر المحيط ٩/٢.

٣ - الكشاف ١٩٨/١.

٤ - المحرر الوجيز ٢١٨/١.

في فنون الفساد وهو الأظهر؛ إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة، وتخصيص سفائهم بالذكر لا يقتضي تسليم الباقين للتحويل وارتضاءهم إياه» [١].

٤- المراد بالقبلة التي كانوا عليها في قوله تعالى: ﴿ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ هي: قبلة بيت المقدس أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إليها في صلاته بمكة ثم توجه إليها بالمدينة سبعة عشر شهرا، وهذا قول ابن عباس[٢].

وروى ابن جريج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى أول ما صلى إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس، وقيل كان يستقبلهما معا فيصلي بين الركنين اليمانيين فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل صخرة بيت المقدس[٣].

وهذا القول يجمع بين الأقوال الواردة المتعارضة في هذه المسألة.

٥- الذي عليه الجمهور أن توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس كان واجبا عليه بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة، وإليه ذهب ابن عباس مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

وذهب الحسن، وعكرمة، وأبو العالية إلى أن ذلك كان عن رأي واجتهاد منه صلى الله عليه وسلم[٤].

وقال الطبري: إنه كان مخيرا بينه وبين الكعبة فاختار بيت المقدس؛ طمعا في إيمان اليهود واستمالتهم، وقال الزجاج: امتحانا للمشركين؛ لأنهم ألفوا الكعبة[٥].

وهذه أقوال ضعيفة؛ للآية السابقة، ولأن أمر القبلة أمر عظيم؛ لتعلقها بركن ركين من أركان الدين وهو الصلاة، فلا دخل فيها لاجتهاد النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا لاختياره المجرد.

٦- تخصيص المشرق والمغرب بالذكر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لأنهما مجمعي الآفاق، وقيل: أراد بالمشرق الكعبة؛ لأنها مشرق المتوجه إليها مصليا في المدينة، وأراد بالمغرب بيت المقدس؛ لأنه مغرب المتوجه إليه فيها.

- **المعنى العالم للآية الكريمة**

بدأت الآية الحديث عن أمر تحويل القبلة وهو أمر عظيم. . حاصله: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أُمر أن يتوجه في صلاته بمكة إلى صخرة بيت المقدس، فتوجه إليها جاعلا الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام بين يديه جامعا بينهما، واستمر الأمر على ذلك إلى أن هاجر إلى المدينة النبوية فتعذر الجمع عليه، فكان –صلى الله عليه وسلم– يتوجه إلى بيت المقدس وقلبه متعلق بالكعبة ومتشوف

١ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٧١/١.

٢ – التفسير الكبير ٨٠/٤.

٣ – تفسير ابن كثير ٤٥٣/١.

٤ – تفسير القرطبي ١٥٠/٢.

٥ – جامع البيان ٦٢٣/٢، اللباب في علوم الكتاب ٨/٣.

لاستقبالها، وقد ظل على ذلك ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، حتى توجه إلى الله تعالى بقلبه في طلبها، فوجهه إليها.

ولم يكن هذا الأمر لِيَمُر هكذا على المتربصين بالنبي –صلى الله عليه وسلم– ودعوته من اليهود، والمنافقين، والمشركين جميعا دون تعليق، أو تشكيك واستهزاء كما هو دأبهم دائما فتساءلوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

قال ابن كثير: « أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم، والتصرف، والأمر كله لله»[١].

فليس الشأن أن يتوجه العبدُ قِبَلَ المشرقِ أو المغربِ، إنَّمَا الشأنُ أن يتوجهَ حيث وجهه مولاه جل في علاه، الشأنُ في الطاعةِ وامتثالِ أوامر الله–عز وجل– وليس في الجهات، كما في قوله تعالى أيضا: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ. . . . . ﴾ إلى آخر الآية.

وهذا هو الصراط المستقيم، أي: الطريقُ السوي الذي لا اعوجاج فيه، والدين القويم الواضح الذي لا شك فيه، يهدي إليه مولانا من يحب من عباده المؤمنين، والآيةُ تشير إلى هداية هذه الأمة المحمدية كما لا يخفى، والمخاطب بها النبيصلى الله عليه وسلم.

- **الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة**

١– إن الاعتراض على أحكام الله تعالى وأوامره والتهكم عليها سفه منشأه خفة العقل والدين معا، ويلحق بذلك مَن يبالغ في طلب الحكمة من التشريع في الأمر والنهي، والتحليل والتحريم فيما قد تخفى عليه حكمته، مع قطعية دليل مشروعيته، ووضوح وجه دلالته، قال أبو حيان: « وَمَنْ طَلَبَ لِلْوَضْعِيَّاتِ تَعَالِيلَ، فَأَحْرَى بِأَنْ يَقِلَّ صَوَابُهُ وَيَكْثُرَ خَطَؤُهُ، وَأَمَّا مَا نَصَّ الشَّرْعُ عَلَى حِكْمَتِهِ، أَوْ أَشَارَ، أَوْ قَادَ إِلَيْهِ النَّظَرُ الصَّحِيحُ، فَهُوَ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ، وَلَا اسْتِفَادَةَ إِلَّا مِنْهُ»[٢].

والحكمة الحقيقية في الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه، ولولم تُدرك الحكمة من ذلك ما دمنا قد وثقنا بالله تعالى، وآمنا والحمد لله بمصدر الرسالة ومنبعها –صلى الله عليه وسلم–.

كما يلحق بهؤلاء السفهاء من يعترض على أقضية الله تعالى بالاستفهام الإنكاري سواء في نفسه، أو في خلق الله تعالى، فالملك كله لله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لأمره، فالتسليم أسلم، والتعظيم رد الأمر إلى من هو أحكم وأعلم.

قال أبو عثمان الحيري– رحمه الله تعالى–: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطه»[٣].

---

١ – تفسير ابن كثير ٤٥٤/١.

٢ – البحر المحيط ١١/٢٢.

٣ – حلية الأولياء ٢٢٤/١٠، تاريخ بغداد ١٠١/٩، الرسالة القشيريةص٥٢.

٢- أن نتوجه حيث وجهنا الله سبحانه وتعالى، فليست العبرة التوجه إلى مشرق، أو مغرب، ولكن في سرعة التوجه ذاته، وامتثال الأمر بالإيمان، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

٣- جواز وقوع النسخ في شريعة الإسلام عند من يقول به من الأصوليين وغيرهم من الفقهاء والمفسرين، وأن نسخ قبلة بيت المقدس بالكعبة المكرمة أولُ نسخ وقع في شريعة الإسلام، كما حكى الإمام القرطبي الإجماع على ذلك.

٤- إن دين الإسلام هو صراط الله المستقيم، ودينه القويم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا انجراف، بل هو دين الوسطية والاعتدال في كل شيء، الذي هدى الله له هذه الأمة الوسط الخيار العدول؛ لتكون خير الأمم شاهدة على غيرها، ويشهد لها نبيها – صلى الله عليه وسلم- فيبقى على كل مسلم أن يراعي المحافظة على حيثيات خيريته، وانتسابه لهذه الأمة بالاستقامة دون إفراط بغلو وتشديد وتضييق، أو تفريط بتساهل وتميع وتقصير.

---

١ – سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

المبحث الثاني: تفسير الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

- **مناسبة الآية الكريمة لما قبلها**

لما بين الله سبحانه وتعالى في ختام الآية السابقة أنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم أتبع ذلك ببيان صفة من هداهم إلى ذلك الصراط المستقيم، وهي الوسط أي: المعتدلة في كل شيء، فالمشبه به راجع إلى معنى يهدي، وقال الإمام البقاعي: « ولما بين استقامة القبلة التي وجههم إليها عرف أنها وسط لا جور فيها فاتبع ذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾»[1]، فالمشبه به راجع إلى القبلة المستقيمة، كما يمكن أن يكون ذكر الأمة الوسط تعريضاً بأمة السفهاء المذكورين في الآية قبلها كما لا يخفى.

- **سبب نزول الآية الكريمة**

قال الإمام ابن الجوزي– رحمه الله تعالى– في زاد المسير [2]: « قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا قبلتنا قبلة الانبياء ونحن عدل بين الناس فنزلت هذه الآية قاله مقاتل». وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ: كَانَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ مَاتُوا عَلَى الْقِبْلَةِ الْأُولَى، مِنْهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَأَبُو أُمَامَةَ أَحَدُ بَنِي النَّجَّارِ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ، وَأُنَاسٌ آخَرُونَ، جَاءَتْ عَشَائِرُهُمْ فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ تُوُفِّيَ إِخْوَانُنَا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى الْقِبْلَةِ الْأُولَى، وَقَدْ صَرَفَكَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ بِإِخْوَانِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ الْآيَةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إِلَى غَيْرِهَا» وَكَانَ يُرِيدُ الْكَعْبَةَ؛ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ لَا أَمْلِكُ شَيْئًا فَسَلْ رَبَّكَ أَنْ يُحَوِّلَكَ عَنْهَا إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ» ثُمَّ ارْتَفَعَ جِبْرِيلُ وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُدِيمُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ رَجَاءَ أَنْ يَأْتِيَهُ جِبْرِيلُ بِمَا سَأَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ[3].

---

١ – نظم الدرر ٢/٢٠٦.

٢ – زاد المسير في علم التفسير ١/١٥٤.

٣ – أخرجه الترمذي في تفسيره (٢٩٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود في السنن (٤٦٨٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٩) عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن جرير (٢/ ١١) وعزاه السيوطي في الدر (١/ ١٤٦) لوكيع والفريابي والطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحاكم.

- **معاني المفردات**
- ﴿ أُمَّةً﴾: الأمة الجماعة من الناس مطلقا، وقيل جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد بينهم روابط مشتركة: لغوية، تاريخية، دينية، سياسية، اقتصادية. . . أو غيرها، أو يجمعهم أمر واحد من دين، أو مكان، أو زمان، أو غير ذلك، والجمْع: أُمم. ولفظ أمة من الألفاظ المشتركة بين معان كثيرة منها: الدين، الوالدة، الجيل، والرجل الجامع لخصال الخير، وعشيرة الرجل. . . وغيرها(١).

وقد وردت في القرآن الكريم بعدة معان أغلبها الجماعة من الناس.

- ﴿ وَسَطًا﴾ وَسَطُ الشيء ما بين طرفيه وهو منه، والوسط: المعتدل من كل شيء، ومجال الشيء وبيئته، والعدل، والخير يقال: هو من وسط قومه وأوسطهم، أي: من خيارهم، والعرب تصف الفاضل النسب بأنه من أوسط قومه(٢).

والوَسْط –بسكون السين–ظرف بمعنى « بين» يكون إذا كان الشيء ذا أجزاء مختلفة وليس هو بعضا مما يضاف إليه، يقال: جلس وسْط القوم، أي: بينهم، وإذا دخل عليه « في» وما بمعناها خرج عن الظرفية ويكون بمعنى وسَط، ويرى ابن بري: أن كلا منهما يقع موقع الآخر(٣).

قال الجوهري: « وكل موضع صلح فيه بين فهو وسْط، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسَط بالتحريك، وربما يسكن وليس بالوجه»(٤).

والمراد هنا: خيارا عدولا كما لا يخفى؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يوم الْقِيَامَةِ »(٥).

وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ على الغير قول الغير إلا أن يكون عدلا(٦).

- ﴿ شُهَدَاءَ ﴾ جمع شهيد، والشَّهِيدُ: الحاضِرُ. وفَعِيلٌ من أَبْنِيَةِ المبالغةِ في فاعِل، إذا اعتُبِر العِلمُ مطْلَقاً فهو العَلِيمُ، وإِذا أُضِيفَ إِلى الأُمُورِ الباطِنَةِ فهو الخَبِيرُ، وإِذا أُضِيفَ إِلى الأُمورِ الظاهِرَةِ فهو الشَّهِيدُ. يقال: شهد على كذا شهادة أخبر به خبرا قاطعا، و لفلان على فلان بكذا أدى ما عنده من الشهادة، و بالله حلف و أقر بما علم (٧).

---

١ – تاج العروس ٢٢٩/٣١.

٢ – المعجم الوسيط ١٠٣١/٢.

٣ – تاج العروس ١٧٥/٢٠.

٤ –الصحاح ١١٦٨/٣.

٥ – صحيح البخاري، كِتَاب الْجُمُعَةِ، بَاب فَرْضِ الْجُمُعَةِ، رقم ٨٣٦، مسلم، كِتَاب الْجُمُعَةِ، بَاب هِدَايَةِ هذه الْأُمَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ رقم ٨٥٥ كلاهما عن أبي هريرة.

٦ – أحكام القرآن لابن العربي ٦٠/١.

٧ – تاج العروس ٢٥٤/٨، المعجم الوسيط ٤٩٧/١، لسان العرب ٢٣٩/٣.

وشهادتهم يوم القيامة على الكفّار بتكذيب الأنبياء عليهم السّلام، لما عاينوه، أو ثبت عندهم بالوحي، أو علموه بالإخبار المتواترة، وشهادة الرسول –صلى الله عليه وسلم – عليهم بإيمانهم، وأنه قد بلغهم.

وقيل معنى ﴿شُهَدَاءَ﴾: حجّة على الناس عند إجماعهم، وإنّما صاروا كذلك؛ لأنّ كلّ نبيّ كان يتلوه نبيّ، فكان يجب انتظار الأنبياء في الواقعات، فلمّا وقع الختم بنبيّنا صلى الله عليه وسلم ووقع اليأس ببعث رسول وجب عليهم الاجتهاد في الواقعات، وصار إجماعهم حجّة إذ لا سبيل إلى الإهمال ولا إلى النصّ(١).

- ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلا لنرى كما قال الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– والعرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم (٢)، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (٣)أي: ألم تعلم.
- ﴿ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ العقب: عظم مؤخر القدم، وآخر كل شيء، والجمع: أعقاب(٤)، ومعنى ﴿ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: يرجع إلى الخلف، ومثله قوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾(٥) أي: رجع القهقرى، ومعناه: رجع عن رأيه وعقيدته وعاد إلى ما كان عليه. والمراد هنا: ارتد عن الإسلام ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(٦)، أي: ارتددتم عن دينكم ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ﴾.

– ﴿لَكَبِيرَةً ﴾: كبيرة مؤنث كبير، والكبير: العظيم، يقال: كبُر بالضم يكبر، أي: عظم فهو كبير، والكبير من أسماء الله تعالى، أي: العظيم الجليل(٧).

والمعنى المراد هنا: الثقيلة، أي: وإن كانت التحويلة، أو القبلة لشاقة وثقيلة على النفوس إلا على من وفقه الله بهداه.

–﴿إِيمَانَكُمْ ﴾: الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا، وهو ضد الكفر، ومعناه لغة: التصديق، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾(٨) أي بمصدق.

واصطلاحا: التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم واعتقاده، والخضوع للشريعة(٩).

والمراد هنا بالإيمان: الصلاة كما سبق في سبب النزول، أي: وما كان الله ليضيع ثواب صلاتكم.

---

١ – دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر ١/٢٦٥، زاد المسير ١/١٢٠.

٢ – جامع البيان ٢/١٣.

٣ – سورة الفيل، آية: ١.

٤ – مختار الصحاح ص١٨٦.

٥ – سورة الأنفال، من الآية: ٤٨.

٦ – سورة آل عمران، من الآية: ١٤٤.

٧ – لسان العرب ٥/١٢٥.

٨ – سورة يوسف، من الآية: ١٧.

٩ – موسوعة أقوال الدارقطني ص١٧.

- ﴿ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة والرحمة: صفتان مشبهتان، مشتقة الأولى من الرأفة، والثانية من الرحمة، قال ابن عاشور: « والرأفة مفسرة بالرحمة في إطلاق كلام الجمهور من أهل اللغة وعليه درج الزجاج وخص المحققون من أهل اللغة الرأفة بمعنى رحمة خاصة»[١].

أي: تكون الرأفة أشد وأقوى من الرحمة ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فالرأفة ممنوعة وإن كانت الرحمة ممنوحة[٢].

وقيل الرأفة والرحمة بمعنى هو: الرقة والتعطف، وذلك في الإنسان رقة القلب وعطفه، وفي حق الله تعالى عطفه وإحسانه[٣].

- **المسائل والأحكام**

١- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

اعتراض وقع استطرادًا لمدح المؤمنين، لرد الإنكار عليهم ببيان منزلتهم، وعلوهم على المنكرين بالشهادة عليهم.

٢- روى الإمام الترمذي- رحمه الله تعالى- عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم- في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسَطًا﴾

قال: « عدلا»[٤]، ومنه قوله تعالى في سورة القلم: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [٥] أي: أعدلهم، وهذا شائع، شائع، وسائغ في اللغة، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: « خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»[٦].

٣- استُدِل بالآية على صحة الإجماع وحجيته ووجوب الحكم به، قال الإمام القرطبي – رحمه الله تعالى-: «لأنهم إذا كانوا عدولا شهدوا على الناس، فكل عصر شهيد على من بعده، فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين، وقول التابعين على من بعدهم، وإذا جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم»[٧].

قلت: وهذا الكلام ليس محل إجماع العلماء؛ إذ فيه نظر؛ لعدم النص عليه صراحة فيبقى محتملا، وإنما الآية نص في أفضلية الأمة على سائر الأمم.

قال الإمام الألوسي: « على أن من نظر بعين الإنصاف لم ير في الآية أكثر من دلالتها على

---

١ – التحرير والتنوير ٢٥/٢.

٢ – الكشف والبيان ١٠/٢، المحرر الوجيز ٢٢١/١، لباب التأويل في معاني التنزيل ٨٨/١.

٣ – لسان العرب ١١٢/٩.

٤ – سنن الترمذي ٥/ ٢٠٧، رقم ٢٩٦١، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

٥ – سورة القلم، من الآية: ٢٨.

٦ – مصنف ابن أبي شيبة ١٧٩/٧ موقوفا على مطرف بن الشخير رضي الله عنه.

٧ – تفسير القرطبي ١٥٦/٢.

أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم، وذلك لا يدل على حجية إجماع ولا عدمها»[١].

وقال الإمام ابن عاشور: « وأما كون الآية دليلا على حجية إجماع المجتهدين عن نظر واجتهاد فلا يؤخذ من الآية إلا بأن يقال إن الآية يستأنس بها لذلك»[٢].

وقد ذهب بعض الشيعة إلى أن الآية دليل على حجية الأئمة الاثني عشر؛ لنزولها فيهم، قال الإمام الألوسي: « ولا يخفى أن دون إثبات ما قالوه خرط القتاد»[٣].

٤- اتفق العلماء على أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس؛ لما روى البخاري في صحيحه عن البراء أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس كما في رواية أخرى[٤].

قال الألوسي: « فالإيمان مجاز، من إطلاق اللازم على ملزومه والمقام قرينة، وهو التفسير المروي عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما- وغيره من أئمة الدين»[٥].

وقال الحسن البصري- رضي الله عنه-: « قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: وما كان الله ليضيع محمدا صلى الله عليه وسلم وانصرافكم معه حيث انصرف»[٦].

ولا يخفى بعده.

قلت: وقد سمى الله تعالى الصلاة إيمانا؛ لأنها دليل عليه وسبيل إليه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [٧]ويشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم: « « إذا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا له بِالْإِيمَانِ»[٨].

- المعنى العام للآية الكريمة

يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الكافُ للتشبيه، والمشبهُ به راجعٌ إلى معنى يَهدي، أو إلى القبلة، أي: كما أنعمنا عليكم بالهداية والقبلةِ الوسط جعلناكم أمة خيارا عدولا؛ لتكونوا أهلا للشهادة

١ - روح المعاني ٤٠٤/١.

٢ - التحرير والتنوير ١٩/٢.

٣ - روح المعاني ٤٠٤/١. والخرط: أن تزيل ورق الشجر بكفيك، والقتاد: نوع من الأشجار له أشواك كالإبر.

٤ - صحيح البخاري، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: الصَّلاَةُ مِنَ الإِيمَانِ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يَعْنِي صَلاَتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ، رقم ٤٠.

٥ - روح المعاني ١٠٦/١.

٦ - تفسير ابن أبي حاتم ٢٥٢/١، تفسير ابن كثير ٣٢٩/١.

٧ - سورة التوبة، من الآية: ١٨.

٨ - سنن ابن ماجه، كِتَاب الْمَسَاجِدِ وَالْجَمَاعَاتِ، بَاب لُزُومِ الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ رقم ٨٠٢، من رواية أبي أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-.

على الأمم الأخرى يوم القيامة أنَّ رسلَهم بلَّغتهم رسالاتِ ربهم، ويكون الرسولُ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم بتبليغِكم رسالةَ ربه، وأنَّكم صدقتموه وآمنتم به.

فقد روى الإمام البخاريُ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يُدْعَى نُوحٌ يوم الْقِيَامَةِ فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يا رَبِّ، فيقول هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هل بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ما أَتَانَا من نَذِيرٍ، فيقول: من يَشْهَدُ لك؟ فيقول: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فيشهدون أَنَّهُ قد بَلَّغَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على الناس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١).

وفي رواية: « ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيُسأل عن حال أُمّته، فيزكّيهم ويشهد لصدقهم»(٢).

ثم بين الله تعالى وجهَ الحكمةِ في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي: ما شرعنا لك قبلةَ بيت المقدس حينا من الدهر ثم صرفناك عنها إلى الكعبة بمكة إلا امتحانا للمسلمين واختبارا؛ حتى يتحققَ علمُنا القديمُ في الظهور مميّزا بين المؤمنين الذين يتبعونك مذعنين عن صدق وطواعية، وبين المنافقين الذين يرتدون ويتشككون لأقل شبهة وأدنى ملابسة.

ثم بين لهم آثارَ تحويلِ القبلة في النفوس مميّزًا بين المؤمنين وغيرِهم فقال: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعلة، وهي صرفُ التوجهِ عن بيت المقدس إلى الكعبة، إن كانت لعظيمة على النفوس، وشاقة عليها، إلا على الذين هدى الله قلوبهم للحق بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، واتباعه في كل أمر وعلى كل حال بخضوع وإذعان فهؤلاء هم أهل الإيمان.

ثم بشرهم بشرى عظيمة في شأن إخوانهم الذين ماتوا على القبلة الأولى قبل التحويل، بأن صلاتهم مقبولة عند الله تعالى، وأنَّ ثوابَها حاصلٌ لهم بفضله تعالى؛ لأنهم ما توجهوا إليها إلا بأمره، وأنتم أيضاً ما تحولتم عنها إلا بأمره، فعاد الأمر إليه في الحالين، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم بعباده لا يُضيع عملهم، ولا يخيب رجاءهم، كما دل عليه هذا التذييل، والجمع بين الوصفين.

الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة

١- أن الله تبارك وتعالى يمحص عباده باختبارهم في الأمر والنهي؛ حتى يميز الخبيث من الطيب، والمنافق من المؤمن، والكافر من المسلم، فالمؤمن ثابت على إيمانه لا يزعزع عنه قيد أنملة، والكافر متمسك بباطله كبرا وعنادا وتقليدا أعمى، والمنافق متهوك متشكك متردد بينهما منقلب على عقبيه، ينكشف أمره بالاختبار والامتحان.

٢- أن من في قلبه حرص يأخذ أحكام الله باستعظام واستبطاء؛ إذ تشق على نفسه، ومن في قلبه هدى وإيمان يستقبل أحكام الله بيسر واطمئنان، والحمد لله رب العالمين.

١ - صحيح البخاري، كِتَاب التفسير، بَاب ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على الناس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾رقم ٤٢١٧.

٢ - تخريج الأحاديث والآثار ٩٢/١.

٣- بيان ما كان عليه الصحابة-رضي الله عنهم- من الحرص على أحكام دينهم بالسؤال عنها، والشفقة على إخوانهم أحياء وأمواتا بحب الخير لهم، ورجاء قبول أعمالهم عند الله سبحانه وتعالى.

٤- وجوب الاجتهاد في الأمور الشرعية محل الاجتهاد، والنوازل المستجدة على المجتهدين؛ حيث لا سبيل إلى معرفة حكمها إلا بذلك.

٥- وجوب اشتراط العدالة في الشهود؛ إذ لا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا.

٦- الدلالة على أفضلية الأمة المحمدية على سائر الأمم؛ إذ هي الأمة الوسط.

٧- يستأنس بالآية على حجية الإجماع.

٨- الرد على المرجئة في إنكارهم تسمية أعمال الدين إيمانا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أي: صلاتكم كما سبق.

٩- أن الله تعالى رؤوف رحيم بخلقه، لا يضيع ثوابهم، ولا يخيب رجاءهم، ولا يحاسبهم على ما جهلوا، ولا على ما أخطأوا فيه من غير عمد أو علم.

المبحث الثالث: تفسير الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

- **مناسبة الآية الكريمة لما قبلها**

كان الكلام في الآيتين السابقتين كالتمهيد للنفوس لما في هذه الآية من تحويل القبلة من بيت المقدس وأمر باستقبال المسجد الحرام، وذلك بعد تقريرها –أي النفوس– بأن المشرق والمغرب والجهات كلها إنما هي لله فيهدي من يشاء إلى الجهة التي يختارها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الراجحة. . . ثم ما في ذلك من الامتحان الذي يفرق بين المهتدي الذي يتلقى أمر الله تعالى بيقين ويسر، وبين المنقلب على عقبيه الذي يشق عليه ذلك أيما مشقة، متشككاً فيما مضى من إيمانه وصلاته مع تعهد الحق سبحانه ويتعالى فيهما بالإثابة والقبول على مقتضى رأفته جل وعلا ورحمته بخلقه مما يمهد النفوس بلا شك لقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فتختار الصواب، وقال الإمام البقاعي– رحمه الله تعالى–: «ولما أشعر الكلام السابق أهل البلاغة بإحداث أمر في القبلة فتوقعوا الخبر عن ذلك وبين رأفته ورحمته بالناس عموماً بين ذلك برسوله خصوصاً بأن تحويله إلى الكعبة رأفة منه به ورحمة له مع ما تقدم من فوائده فقال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾»[1].

- **سبب نزول الآية الكريمة**

أخرج ابن ماجه عَنْ الْبَرَاءِ، قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَصُرِفَتْ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ دُخُولِهِ الْمَدِينَةَ بِشَهْرَيْنِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَكْثَرَ تَقَلُّبَ وَجْهِهِ فِي السَّمَاءِ، وَعَلِمَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ يَهْوَى الْكَعْبَةَ، فَصَعِدَ جِبْرِيلُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ، وَهُوَ يَصْعَدُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ مَا يَأْتِيهِ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الْآيَةَ»[2].

---

١ – نظم الدرر ٢/٢١٦، ٢١٧.

٢ – سنن ابن ماجه، أَبْوَابُ إِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ وَالسُّنَّةِ فِيهَا، بَابُ الْقِبْلَةِ، رقم ١٠١٠.

معاني المفردات

- ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾: تحوله في السماء، وتردده فيها انتظارا للوحي في شأن القبلة، وتقلُّبَ: مصدر تقلَّب تقلُّبا، أي: تحول، يقال: قلب الشيء يقلبه قلبا، أي: حوله عن وجهه[١]، قال ابن عاشور: فالمراد بتقليب الوجه: الالتفات به أي: تحويله عن جهته الأصلية، فهو هنا ترديده في السماء[٢].
- ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فلنعطينك، من ولي فلانا الأمر تولية، أي: قلَّده إياه، وأعطاه له، وصيره واليا له، أو من وليه إذا دنا منه، ووليته: أدنيته منه، أي: فلنجعلنك تلي جهتها دون جهة بيت المقدس، والفاء: للتعقيب، قال الشوكاني: وقوله: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ هو إما من الولاية: أي: فلنعطينك ذلك. أو من التولي: أي: فلنجعلنك متوليا إلى جهتها، وهذا أولى منه لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٣].

وقد اختلفت ألفاظ المفسرين في معني: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ لكنها دارت حول معنى واحد متقارب، منها: فلنحولنك، فلنصيرنك، فلنوجهنك[٤]. . . . الخ

واللام والنون مع القسم المضمر للمبالغة في التأكيد على تحقق حصول هذا الوعد الكريم، أي: فوالله لنولينك، وقدر أبو حيان حالا محذوفة في الجملة السابقة، تقديره: قد نرى تقلب وجهك في السماء طالبا قبلة غير التي أنت مستقبلها[٥].

- ﴿ تَرْضَاهَا﴾: تحبها وتميل إليها؛ لأن الكعبة كانت أحب إليه من غيرها بحسب ميل الطبع، وقيل ترضاها محمول على الحقيقة، أي: ترضى عاقبتها؛ لأنك تعرف بها من يتبعك، وترضى آثارها في التأليف وسرعة الاستجابة.
- ﴿شَطْرَ﴾: نحو، وتلقاء وجهه، ومن ذلك قول الهذلي[٦]:

إنَّ العَسِيرَ بهَا دَاء مُخَامِرُهَا فَشَطْرَهَا نَظَرُ العَيْنَيْنِ مَحْسُورُ

أي: فنحوها.

وقول بعضهم:

أَقُولُ لِأُمِّ زِنْبَاعٍ أَقِيمِي صُدُورَ الْعِيسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمِ

أي: تلقاء بني تميم، قال الزجاج[٧]: ولا اختلاف بين أهل اللغة أن الشطر النحو.

---

١ – لسان العرب ٦٨٥/١.

٢ – التحرير والتنوير ٢٧/٢.

٣ – فتح القدير ١٧٧/١.

٤ – التفسير البسيط ٣٨٧/٣، جامع البيان ٦٥٦/٢، بحر العلوم ١٠١/١.

٥ – البحر المحيط ٢٣/٢.

٦ – جامع البيان ١٧٥/٣، النكت والعيون ٢٠٣/١، معاني القرآن للزجاج ٢٢٢/١.

٧ – معاني القرآن ٢٢٢/١.

وقد قرأ أبي عبلة: ﴿ فولوا وجوهكم تلقاءه ﴾[١]، وفي حرف عبد الله: ﴿ فولوا وجوهكم قبله﴾[٢]، وهذا يؤيد ما سبق.

والشطر في الأصل يقال لما انفصل عن الشيء إذا انفصل. . ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل.

فالشطر يكون بمعنى الجزء من الشيء والنصف منه، ومن ذلك قولهم: شاطرتك مالي[٣]، وقوله- صلى الله عليه وسلم-: « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»[٤].

وهو من الأضداد، يقال: شطر إلى كذا، إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا، إذا أعرض عنه.

﴿ وَحَيْثُ مَا ﴾ «حيث» ظرفية، و «ما» كافَّةٌ، اسم شرط للمكان مبني يجزم فعليين مضارعين، فعل الشرط وجوابه، نحو: حيثما تتوجه تجد وجه الله تعالى، أما حيث: فظرف للمكان بمنزلة حين في الزمان، يبنى على الضم، ويضاف للجمل وهو مبهم يوضحه ما بعده، تقول: أقوم حيث يقوم زيد، وحيث تكون أكون، وتأتي حيث أيضاً ظرف زمان مبنياً على الضم، نحو: جئت حيث جاء الولد، أي: حين جاء، وتدخل عليها أو تسبقها بعض حروف الجر، كمن، وإلى، والباء، وهي من الظروف التي لا يجازى بها إلا مع ما، فإن اتصلت بها ما الكافة تضمنت معنى الشرط وجزمت فعليين، تقول: حيثما تجلس أجلس، أي: أينما، وحيثما تعمل تنجح[٥].

- **المسائل والأحكام**

١- « قد» في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَى**﴾ حرف تحقيق، أي: قد رأينا، وجيء بالفعل المضارع للدلالة على التجدد [٦].

وقيل: قد للتكثير، أي: كثيرا ما نرى تردد وجهك في السماء.

وقال أبو حيان: إنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية وهو التقلب لأن من رفع بصره إلى السماء مرة واحدة لا يقال فيه قلب بصره في السماء، وإنما يقال قلب إذا ردد[٧].

قلت: وفي هذا رد على من جعل « قد» هنا للتقليل زعما منه أن وقوع التقلب قليلا أدل على كمال أدبه صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى بعده[٨].

---

١ - المحرر الوجيز ٢٢٢/١.

٢ - البحر المحيط ٢٥/٢.

٣ - لسان العرب ٤٠٧/٤.

٤ - صحيح مسلم، كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَاب فَضْلِ الْوُضُوءِ، رقم ٢٢٣.

٥ - التبيان في إعراب القرآن ١٢٥/١، إرشاد العقل السليم ١٧٥/١، البحر المحيط ٢٤/٢، ٢٥.

٦ - التحرير والتنوير ٢٧/٢.

٧ - البحر المحيط ٢٢/٢.

٨ - روح المعاني ٤٠٧/١.

٢- قال الإمام الماوردي: « وفي قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّمَاءِ﴾ تأويلان: أحدهما: معناه: تحول وجهك نحو السماء، وهذا قول الطبري. والثاني: معناه: تقلب عينيك في النظر إلى السماء، وهذا قول الزجاج»[١].

قلت: قال الزجاج[٢]: « وقوله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ المعنى: في النظر إلى السماءِ، وقيل: تقلب عينك، والمعنى واحد؛ لأن التقلب إنما كان لأن - النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر بترك الصلاة إلى بيت المقدس فكان ينتظر أن ينزل عليه الوحي إلى أي قبلة يُصَلِّي».

فالأصل في هذا القول أن يكون مبنيا على أن المراد هو تقلب البصر تطلعا للوحي، والوجه إنما يتقلب بتقلب البصر، فكني بالوجه عن البصر؛ لأنه محله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٣]. والمراد الأعين.

أو ذكر الوجه لأنه أشرَفُ الأعضاءِ وهو الذي يُقَلْبه السائلُ في حاجته، قاله السمين الحلبي في الدر المصون[٤].

وأما القول الأول فإنه مبني على أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يقلب وجهه في السماء أو نحوها يحب أن يصرفه الله- عز وجل- إلى الكعبة حتى صرفه الله تعالى إليها، وهو قول قتادة، وهذا يتضمن الدعاء بالقلب، والطلب من الله تعالى وإن لم يتلفظ به، ويشير إلى ذلك توجهه نحو السماء قبلة الدعاء، وفي ذلك من كمال أدبه، وقوة يقينه ما لا يخفى، ويشير إلى هذا قول جبريل - عليه السلام-: « ادع ربك وسله»[٥].

٣- التعبير بقوله تعالى: ﴿ تَرْضَاهَا﴾ بدل تحبها للدلالة على أن حبه- صلى الله عليه وسلم- للاتجاه نحو الكعبة لم يكن عن هوى مجرد عن تعقل مقاصد المصلحة الشرعية الراجحة في اختياره من مخالفة اليهود، وكراهة موافقتهم، كما قال مجاهد، وابن زيد[٦]، أو اتباع قبلة أبيه إبراهيم-عليه السلام- كما قال ابن عباس، أو حرصه الشديد على إسلام قومه وقبلة الكعبة أدعى لاستمالتهم إليه كما ذكر بعض المفسرين، وكل هذا من المصالح الدينية كما لا يخفى[٧].
يخفى[٧].

هذا بالإضافة إلى حبه الفطري للكعبة المشرفة رمز العبودية والتوحيد لله- عز وجل- الذي نشأ في رحابها بحكم مولده ونشأته، وهو أمر قدري لا دخل له فيه، فربما كانت رؤيته الدائمة لها يخفف عنه

---

١ - النكت والعيون ٢٠٢/١.

٢ - معاني القرآن ٢٢١/١.

٣ - سورة القيامة: الآيتان: ٢٢-٢٣.

٤ - الدر المصون ١٦٠/٢.

٥ - نواهد الأبكار وشوراد الأفكار ٣٣٩/٢.

٦ - المحرر الوجيز ٢٢١/١، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١١١/١.

٧ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل١٣٩/١.

وهو يتجه إلى بيت المقدس في مكة جامعا بينهما، أما وقد أصبح في المدينة لا يراهما أمامه ولا يحضر في أحدهما، فلا شك أن يتجه بسجيته القلبية لطلب الكعبة؛ لارتباط جميع المعاني الشريفة الحاصلة في قلبه الشريف بها، وفي هذا جواب عن سبب طلبه لها مع ما سبق.

٤- قوله تعالى: ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ لا يعني ولا يلزم منه أنه -صلى الله عليه وسلم- كان غير راض عن توجهه إلى بيت المقدس أو كاره له؛ إذ هذا يستحيل في حقه- صلى الله عليه وسلم- ولا يليق بمقام النبوة الذي يقتضي الامتثال الأكمل، والرضا الأتم لما يأمره الله تعالى به، ويدعوه إليه، وإنما كان حبه وكرهه -صلى الله عليه وسلم- في هذا الأمر مرتبطان بدوافع وآثار دينية لا دخل له بها، ولا تثريب عليه فيها[١].

فأما حبه للكعبة فلأنها كانت قبلة جده إبراهيم- عليه السلام-؛ ولأن التوجه إليها أدعى إلى إيمان قومه، واستمالة العرب لمحبتهم الكعبة، وتأليف قلوبهم عليه، هذا بالإضافة إلى الفطرة السليمة التي تقتضي محبة البيت الحرام الذي عاش في كنفه، وتوله في رحابه. . .

وأما كرهه- تجاوزا- للتوجه إلى بيت المقدس على ما جاء في رواية ابن عباس-رضي الله عنهما- أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل -عليه السلام-: «يَا جِبرِيلُ وَدِدْتُ أَنَّ اللهَ - تَعَالى - صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ اليَهُود، إِلَى غيرهَا فَقَدْ كَرِهْتُهَا»[٢] فلم يكن كرها لذاتية التوجه، وإنما لما يتعلق به من موافقتهم في قبلتهم واستئناسهم بذلك ظنا وطمعا في مزيد من الموافقة لهم، هذا بالإضافة إلى إيذائهم له بقولهم: إنه يُخَالِفُنَا، ثم إنه يتبع قِبْلَتَنَا، ولولا نحْنُ لم يدر أَيْن يستقبلّ[٣]! !

وقولهم: ما علم محمد دينه حتى اتبعنا، قاله مجاهد[٤].

فلا شك أن النبي-صلى الله عليه وسلم-كره منهم جميع ذلك وتمنى أن يوجهه الله تعالى إلى الكعبة ليخيب ظن اليهود، ويكشف إفكهم، بمخالفتهم في القبلة استقلالا بهذا الدين عنهم، واستمالة العرب وتقوية الإسلام بهم، فعاد الأمر إلى غرض صحيح مرتبط بمصالح شرعية راجحة لهذا الدين، فإذا وافق هذا كله هواه المعصوم بميل قلبه إلى قبلة أبي الأنبياء إبراهيم- عليه السلام- فقد اجتمع له الحسنيان، فلا يقال بعد ذلك إنه كره قبلة بيت المقدس، بل كان يحبها ويكره موافقة اليهود.

والكعبة إليه أحب على مقتضى عمل اسم التفضيل، وهذا هو المفهوم مما دل عليه صحيح المنقول، وصريح المعقول مما يليق بحضرة الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

٥- الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لتفريع الأمر الذي جاء عقب وعد مؤكد بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، والنون، وذلك حتى يتوالى فرحه- صلى الله

---

١ - اللباب في علوم الكتاب٣/٣١.

٢ - مفاتح الغيب ٤/٩٤، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/٤٢٦.

٣ - مفاتح الغيب٤/٩٤.

٤ - المحرر الوجيز ١/٢٢١.

عليه وسلم- بالبشارة والأمر، وتظهر مسارعة مولانا-جل جلاله-في محابه صلى الله عليه وسلم؛ إذ لم يلبث الوعد أن تحول إلى أمر[١].

٦- المراد بالوجه في الآية، جميع البدن؛ لتبعية البدن للوجه في المواجهة والاستقبال، فكنى بالوجه عن البدن هنا، كما كنى به عن البصر من قبل بدلالة المعنى، هذا بالإضافة إلى أن التعبير بالوجه عن الجسد دارج في لغة العرب، وبه جاء القرآن في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٢] أي: إلا ذاته، وقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٣] أي: ويبقى ربك، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[٤] أي: نفسي. . . . وغيرها.

قال الفخر الرازي: المراد من الوجه هاهنا جملة بدن الإنسان لأن الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء لأن الوجه أشرف الأعضاء ولأن بالوجه تميز بعض الناس عن بعض، فلهذا السبب قد يعبر عن كل الذات بالوجه[٥].

وأضاف الإمام الألوسي: أو مراعاةً لما قبلُ، أي لما قال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ قال هنا: ﴿فول وجهك﴾[٦].

والمراد بتولية الوجه هنا حال الصلاة كما لا يخفى، قال ابن عاشور: وهو مستفاد من قرينة سياق الكلام [٧].

٧- جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ للنبي – صلى الله عليه وسلم- متبوعا بخطاب مماثل لأمته، مع أن أمته تابعة له في ذلك؛ حيث إن الأصل في التشريعات كذلك ما لم يرد تخصيص لأحدهما، وقد جاء الأمر للنبي – صلى الله عليه وسلم- ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ولأمته: ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾، فخص الرسول بالخطاب في التوجه إلى المسجد الحرام، وعطف عليه مخاطبة عموم الأمة بالأمر نفسه بزيادة: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾، التي تفيد تعميم الأماكن بعد تعميم الخطاب في المكلفين دفعا لإيهام خصوصية الحكم أو تقييده بمدة أو مكان، هذا بالإضافة إلى ما يلمح من مزيد اعتناء بمطلبه الذي انفرد به – صلى الله عليه وسلم- مع ربه وهو يقلب وجهه في السماء، فكان مناسباً أن يرد عليه منفردا بالخطاب تعظيما لحضرته، ومسارعة في تلبية رغبته.

وقال أبو حيان: «وَلَمَّا كَانَ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُوَ المتشوف لِأَمْرِ التَّحْوِيلِ، بَدَأَ بِأَمْرِهِ أَوَّلًا ثُمَّ أَتْبَعَ أَمْرَ أُمَّتِهِ ثَانِيًا؛ لِأَنَّهُمْ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[١].

---

١ – البحر المحيط ٢٣/٢، روح المعاني ٤٠٨/١.

٢ – سورة القصص، من الآية: ٨٨.

٣ – سورة الرحمن، من الآية: ٢٧.

٤ – سورة الرحمن، من الآية: ٢٧.

٥ – التفسير الكبير ٩٧/٤.

٦ – روح المعاني ٤٠٨/١.

٧ – التحرير والتنوير ٢٨/٢.

وقال العلامة أبو السعود: « خُص الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالخطاب تعظيما لجنابه، وإيذاناً بإسعاف مرامِه، ثم عُمّم الخطابُ للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيداً للحُكم وتصريحاً بعُمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد، وحثاً للأمة على المتابعة»[٢].

٨- المقصود بالمسجد الحرام هنا في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: الكعبة، وذلك لما روى البخاري عن ابن عباس- رضي الله عنهما، قال: « لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البَيْتَ، دَعَا فِي نَوَاحِيهِ كُلِّهَا، وَلَمْ يُصَلِّ حَتَّى خَرَجَ مِنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فِي قُبُلِ الكَعْبَةِ، وَقَالَ: «هَذِهِ القِبْلَةُ»[٣].

ولما جاء في أحاديث أخرى سابقة متعلقة بالآيات تنص على أن الكعبة هي القبلة، كحديث البراء بن عازب في صحيح البخاري، وفيه: « فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ»[٤].

وحديث عبد الله بن عمر في صحيح البخاري أيضا عن أهل قباء: « فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ»، وغيرها من أحاديث، وأخبار في صرف القبلة إلى الكعبة[٥].

وقد يذكر المسجد الحرام ويراد به المسجد كله كقوله- صلى الله عليه وسلم-: « لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[٦].

وقد يراد به مكة كلها، كما في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[٨]. على اختلاف في المعنى المراد في هذه الآيات، والمعنى الأول، أي: الكعبة هو المراد هنا، وهو الظاهر من السياق وأسباب النزول والأخبار الواردة في القبلة كما سبق.

وفي التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام هنا إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة في كل أفق، إلا لمن عاينها فالواجب عليه استقبالها، ومن خفيت عليه تحراها ما استطاع، لا خلاف في ذلك.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي٢/٢٥.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي١/١٧٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، رقم: ٣٩٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم ٣٩٩.

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ رقم ٤٤٨٨.

(٦) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم: ١١٨٩.

(٧) سورة الإسراء: ١.

(٨) سورة التوبة: ٢٨.

٩- الآية دليل على وجوب استقبال القبلة عند إقامة الصلاة في الفرض والنافلة، فهو شرط من شروط صحتها، وقد استدل العلماء على ذلك بهذه الآية، وبالأحاديث الواردة في سبب نزولها، وبقوله صلى الله عليه وسلم: « «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ»[١]، وبالإجماع.

واستثنوا من ذلك حالتين يجوز فيهما ترك جهة القبلة إلى غيرها.

الحالة الأولى: الخوف من العدو، لقوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[٢]. أي قياما على أقدامكم، أو راكبين، قال ابن عمر: مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، قال نافع،: « ولا أرى ابن عمر قال ذلك إلا عن النبي – صلى الله عليه وسلم»[٣].

والحالة الثانية: صلاة النافلة في السفر على الراحلة، حيث يجوز له الصلاة حيثما توجهت راحلته، وقد أجمع العلماء على ذلك لما روي عن ابن عمر – رضي الله عنهما– قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم – يصلي، وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، وفيه نزلت: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وغيرها من الأحاديث، لكن على المصلي على الدابة أو الراحلة أن يستقبل القبلة عند دخوله في الصلاة ثم يصلي إلى أي جهة توجهت، وذلك لحديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– كان إذا سَافَرَ فَأَرَادَ أَنْ يَتَطَوَّعَ اسْتَقْبَلَ بِنَاقَتِهِ الْقِبْلَةَ فَكَبَّرَ ثُمَّ صلى حَيْثُ وَجَّهَهُ رِكَابُهُ»[٤] فيكون هذا الحديث مخصصا للأحاديث الأخرى المطلقة.

والراحلة من الإبل: الصالح للأسفار والأحمال ويقاس عليها الوسائل الحديثة بأنواعها المختلفة.

ويلحق بهاتين الحالتين العاجز عن استقبال القبلة فإنه يجوز له تركها لعموم الآية الواردة في سقوط الحكم عند المشقة والتعذر، ويجمع ذلك كله شرطان: الأمن، والقدرة.

١٠- والآية تدل على أن المصلِّي يستحب له أن ينظر أمامه، أو تلقاء وجهه في صلاته كما ذهب إليه مالك وغيره، لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه أبو حنيفة، والشافعي، والثوري، وغيرهم؛ لأن الذي ينظر إلى موضع سجوده لا يكون متحققا بجعل وجهه تلقاء المسجد الحرام على الوجه الأتم.

قال الإمام أبو بكر بن العربي: « إِنَّمَا يَنْظُرُ أَمَامَهُ، فَإِنَّهُ إنْ حَنَى رَأْسَهُ ذَهَبَ بَعْضُ الْقِيَامِ الْمفترض عَلَيْهِ فِي الرَّأْسِ، وَهُوَ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ مِنْهُ، وَإِنْ أَقَامَ رَأْسَهُ وَتَكَلَّفَ النَّظَرَ بِبَصَرِهِ إلَى الْأَرْضِ فَتِلْكَ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ وَحَرَجٌ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِالتَّجْرِبَةِ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ؛ وَإِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْجِهَةَ بِبَصَائِرِنَا وَأَبْصَارِنَا، أَمَّا إنَّهُ أَفْضَلُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مَتَى قَدَرَ وَكَيْفَ قَدَرَ، وَإِنَّمَا الْمَمْنُوعُ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ فِي الصَّلَاةِ إلَى السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ السَّمَاءَ، وَإِنَّمَا أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْجِهَةَ الْكَعْبِيَّةَ»[٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم: ٦٢٥١.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) الجمع بين الصحيحين ١٤٩/٢.

(٤) سنن أبي داوود، تفريع صلاة السفر، باب التطوع على الراحلة والوتر، رقم: ١٢٢٥.

(٥) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ٣١٢/٣.

١١- وقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ناسخ لقبلة بيت المقدس، وهو أول نسخ في الإسلام عند أكثر المفسرين، بل قال القرطبي: « وأجمع العلماء على أن القبلة أول ناسخ من القرآن»(١).

وقال مكي بن أبي طالب: «هذه الآية عند أكثر المفسرين وأهل المعاني ناسخة للصلاة إلى بيت المقدس وهي عندهم أول ما نسخ، وهذا مروي عن ابن عباس، قال: « كان أول ما نسخ من القرآن: شأن القبلة»(٢).

وقيل: إن الله تعالى نسخ قبلة بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٣)، فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في الصلاة إلا أن النبي – صلى الله عليه وسلم- كان يختار التوجه إلى بيت المقدس، ثم إنه تعالى نسخ ذلك بتعيين الكعبة أي بقوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، قاله قتادة وابن زيد(٤).

وعلى هذا فالآية الأولى نسخت قبلة بيت المقدس، والآية الثانية نسخت الآية الأولى، فالنسخ الأول من نسخ السنة بالقرآن، والنسخ الثاني من نسخ القرآن بالقرآن، وهما من أنواع النسخ عند من قال به.

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ نزلت في المسافر يصلي النوافل على الراحلة لقول ابن عمر – رضي الله عنهما-: « إنما نزلت هذه الآية في الرجل يصلي حيث توجهت به راحلته في السفر»(٥).

أو نزلت لما أنكرت اليهود تحول القبلة عن بيت المقدس كما ذكر ابن عباس، ونظيره قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٦)، وذلك لبيان صحة التوجه في القبلتين وأنه وأنه بأمر الله الذي يملك جميع الجهات، وما يأمر الله بالتوجه إليه منها في حينها هو القبلة، فكلاهما صحيح ما دام بأمره وعلى مراده –جل جلاله-.

وقوله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي: إلى ما أمركم الله به فثم وجه الله، إن وجهكم إلى بيت المقدس فثم وجه الله، وإن وجهكم إلى الكعبة فثم وجه الله، فالتوجه مقيد بالأمر لا بميل النفس واختيارها، وفي هذا رد على حييٍّ بن أخطب وأصحابه من اليهود حين قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى فقد تحولتم عنها، وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها(٧).

وعلى هذا فقوله تعالى: : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ليس مرحلة في النسخ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥١/٢.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٤٩٣/١.

(٣) سورة البقرة: ١١٥.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٢١٢/١.

(٥) مسند أحمد ٤١/٢، رقم ٥٠٠١.

(٦) سورة البقرة: ١٤٢.

(٧) تفسير البغوي ١٧٦/١، السراج المنير ١٠٠/١.

والآية دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن خلافا لمن أنكر ذلك.

- **المعنى العام للآية الكريمة**

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه – صلى الله عليه وسلم– متلطفا معه في الخطاب، مسريا عنه ما يجد في نفسه من كلام اليهود عنه وعن أصحابه– رضي الله عنهم–، وتهكمهم عليهم في أمر القبلة مما اضطره أن يقلب وجهه في السماء ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: نحن نراك لأنك بأعيننا، ونرى تردد وجهك في السماء داعيا بقلبك متلطفا متلهفا نزول الوحي عليك بإجابتك، فها نحن نبشرك بإجابة مطلبك مؤكدين لك بالقسم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ بفاء التعقيب، ولام التوكيد، ونونه، والمعنى: أبشر بأن تولية وجهك الشريف إلى الكعبة الشريفة سيتحقق سريعا عقب هذا الوعد المؤكد المتضمن لكل معاني المحبة والتأنيس والتلطف، وتطييب النفس بالترضية، وذلك غاية الإحسان، وتمام المنة والإكرام.

ثم عجَّل مولانا – جلا جلاله– بتحقيق وعده لنبيه – صلى الله عليه وسلم– دون أدني فاصل زمني، مسارعة في إرضائه ومتابعة لإيناس قلبه، فقال آمرًا له: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: فاصرف وجهك نحو الكعبة التي تحبها وتريدها.

ثم وجَّه الخطاب إلى أمته – صلى الله عليه وسلم– بإعادة الأمر نفسه بجميع ألفاظه ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ليبين أن عطاءهم من جنس عطائه – صلى الله عليه وسلم– غير منفصل عنه، إكراما له ولأمته من أجله، فهو مصدر كرامتهم وإكرامهم.

وزاد في مخاطبتهم قوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ تبشيرا بانتشار الإسلام، وإشارة إلى بلوغه أرجاء الأرض فيتوجه إلى الكعبة اليوم من جميع جهاتها، شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها، لا من مكة أو المدينة فقط، حيث نزل الأمر، ولعل ذلك أيضا من أسرار تكرار الخطاب، مرة للنبي –صلى الله عليه وسلم، وأخرى لأمته، فيما كان يمكن أن يجمع في جملة واحدة.

والآية في النهاية أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلته في أي مكان كان.

ثم أظهر مولانا –جل جلاله– لحبيبه – صلى الله عليه وسلم– حقيقة ما تنطوي عليه صدور أهل الكتاب، وإن أظهروا عكسه بأقوالهم وأفعالهم، حقدا وكبرا، فقال: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى، خاصة أحبارهم؛ لما يشعره لفظ ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من الإشارة إليهم، دون لفظ أهل الكتاب ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ لأنهم يعلمون يقينا أن محمدا –صلى الله عليه وسلم– حق من كتبهم، وأن شريعته ناسخة لشريعتهم، وأنه يصلي إلى القبلتين ثم تكون قبلته ناسخة لقبلتهم.

ولقد أكد الله على ذلك بالتعريف الدال على القصر في﴿ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ مؤكدا بمؤكدين مما لا يدع مجالا للشك في أنهم يخالفون عامدين عاندين، ولذلك ذيل الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾، بياء الغيبة كما قرأه الجمهور(١)، رداً على الذين أوتوا الكتاب، أي: عن عملهم بغير ما علموا بدافع السفه الموسومين به، وهذا تهديد لهم ووعيد يستلزم الشهادة لنبيه وأمته بأنهم أرباب الحق عقيدة وشريعة وأخلاقا مع الحق سبحانه وتعالى، حيث امتثلوا أمره في استقبال القبلة خاشعين دون أدني اعتراض بحال

(١) الهادي شرح طيبة النشر ٥٨/٢.

أو بقال، ويدل على ذلك قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وغيرهم: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١] ردا على المؤمنين، فينعكس المعنى السابق ليستلزم وعيدا للكافرين ووعدا للمؤمنين، الذين يسارعون في العمل على مراد الله – جل جلاله–.

وقال العلامة الألوسي: « وقيل: الضمير على القراءتين لجميع الناس فيكون وعدا ووعيدا لفريقين من المؤمنين والكافرين»[٢].

وأيًّا ما كان عود الضمير بالغيبة، أو بالخطاب، أو بالالتفات، فإنه وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

- **الدروس المستفادة من الآية الكريمة**

١- أن الوجه أشرف الأعضاء وأجمعها للحواس، ولذا عبر به عن تقلب البصر تطلعاً للوحي ﴿قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ﴾، كما عبر به عن الذات والجسد في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم: « سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ » [٤].

٢- إن الظاهر في الدعاء أن يكون باللسان مع توجه القلب إلى الرب سبحانه وتعالى، لكن قد يحتم الأدب ترك تحرك اللسان بالطلب اعتمادا على توجه القلب، وخضوعا لمجاري الأقدار بقسمة الأزل، أو حياء من التصريح بطلب المزيد من النعم، أو لاشتغال اللسان بذكر المُنعم، وإلى ذلك أشار ابن عطاء الله السكندري في حِكَمه بقوله: « ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته، واشتغالا بذكره عن مسألته»[٥]. وإليه الإشارة بقوله – صلى الله عليه وسلم–: « يقول الرَّبُّ عز وجل من شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عن مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلِينَ»[٦].

٣- استحباب النظر إلى السماء وقت الدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، ولورود فعله عنه صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة، بخلاف ما لو كان في الصلاة،

---

(١) الهادي شرح طيبة النشر ٥٨/٢.

(٢) روح المعاني لأبي الثناء الألوسي ٤٠٩/١.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٢٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٢٠١.

٥ – متن الحكم العطائية ص٢٨٦.

٦ – سنن الترمذي، كِتَاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– باب ما جاء كَيْفَ كان قِرَاءَةُ النبي– صلى الله عليه وسلم– رقم ٢٩٢٦من رواية أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه– وقال الترمذي: « حديث حسن غريب». لكن الحديث مختلف فيه بين تحسين وتضعيف.

فالجمهور على عدم جواز ذلك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إلى السَّمَاءِ في الصَّلَاةِ أو لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»[١]، وهذا خلافاً للمالكية[٢].

٤- يجب على كل مصل أن يستقبل القبلة في صلاته في أي موضع كان من الأرض، وأن تكون قبلته عين الكعبة إن عاينها، وجهتها إن لم يعاينها.

٥- صحة صلاة من صلى إلى غير القبلة مجتهدا، ما دام لا يعلم ذلك، وليس عليه إعادة الصلاة عند معرفته بالجهة الصحيحة.

٦- إثبات حرمة البلد الحرام – مكة المكرمة- بتسمية مسجدها بالمسجد الحرام، أي: ذي الحرمة والمكانة، ولقوله صلى الله عليه وسلم يوم فتحها: « إِنَّ هذا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ الله يوم خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لم يَحِلَّ الْقِتَالُ فيه لِأَحَدٍ قَبْلِي، ولم يَحِلَّ لي إلا سَاعَةً من نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شوكة، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يَلْتَقِطُ إلا من عَرَّفَهَا، ولا يُخْتَلَى خَلَاهَا، فقال الْعَبَّاسُ: يا رَسُولَ اللَّهِ إلا الْإِذْخِرَ؛ فإنه لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ؟ فقال: إلا الْإِذْخِرَ»[٣].

٧- أن القبلة مظهر من أهم مظاهر الوحدة في الأمة الإسلامية التي جمع الله تعالى لها من خصال الوحدة ومقوماتها ما لم يعرف في أمة أخرى؛ فربها واحد، وكذا دينها، وكتابها، ونبيها، وشرائعها، وشعائرها مما يجعلها مؤهلة للاتفاق والتوحد في صفوفها وأهدافها بعيدة كل البعد عن الاختلاف والتفرق الذي أصبح طابعها الغالب عليها مع كثرة ما جاء في نصوصها من آيات وأحاديث مشهورة تدعو إلى الوحدة وتحث عليها كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٥]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٦]، وقوله صلى الله عليه وسلم: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» [٧]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ إلا لاَ فَضْلَ لعربي على أعجمي وَلاَ لعجمي على عربي وَلاَ لأَحْمَرَ على أَسْوَدَ وَلاَ

١ – صحيح البخاري، كتاب صِفَةِ الصَّلَاةِ، بَاب رَفْعِ الْبَصَرِ إلى السَّمَاءِ في الصَّلَاةِ، رقم ٧١٧، صحيح مسلم، كِتَاب الصَّلَاةِ، بَاب النَّهْيِ عن رَفْعِ الْبَصَرِ إلى السَّمَاءِ في الصَّلَاةِ، رقم ٢٤٨.

٢ – شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٦٤/٢، شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٢/٤.

٣ – متفق عليه: البخاري، أبواب الْجِزْيَةِ والموادعة، بَاب إِثْمِ الْغَادِرِ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، رقم ٣٠١٧، مسلم كتاب الحج، بَاب تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إلا لِمُنْشِدٍ على الدَّوَامِ، رقم ١٣٥٣.

٤ – سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

٥ – سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

٦ – سورة آل عمران، من الآية: ١٠٣.

٧ – صحيح مسلم كِتَاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَاب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، رقم ٢٥٨٦.

أَسْوَدَ على أَحْمَرَ إلاَّ بِالتَّقْوَى» [١]، وكل هذه المظاهر والنصوص التي ترسم وحدة هذه الأمة تتبلور في اتجاهها إلى جهة واحدة من جمع بقاع الأرض في أهم ركن من أركان دينها، لتجسد صورة الوحدة الظاهرة التي لا يبقى معها سوى اتحاد القلوب باطناً لتكمل معالم الوحدة الصادقة للأمة.

٨- عناية الله سبحانه وتعالى بحبيبه- صلى الله عليه وسلم- وبيان شرفه وقدره وكرامته على ربه حيث نظر إلى قلبه فأجابه سريعا إلى ما يتمناه، من غير تصريح بسؤال، ولا رفع يد بدعاء. .
.

٩- الحث على محبة الإنسان لبلده وموطنه الأصلي الذي ولد ونشأ فيه، وضرورة ارتباطه به قلبياً ووجدانياً، وكذا بالأماكن التي أقام فيها وتردد عليها، وذلك بتذكرها وزيارتها والسؤال الدائم عنها، وإكرام أهلها وغير ذلك مما فعله صلى الله عليه وسلم بمكة وأهلها بعد إخراجهم له منها حتى قال مخاطباً إياها: « مَا أَطْيَبَكِ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[٢]، ولما استقر في المدينة كان يقلب وجهه في السماء حنيناً إلى الكعبة حتى وجهه الله إليها، مما يعكس عظيم حبه لوطنه، وكمال وفائه له صلى الله عليه وسلم، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم.

١٠- سَعة رحمة الله تعالى ورأفته بعباده إذ يكلفهم بما في وسعهم، ويرفع عنهم ما لا يتناسب مع طاقتهم البشرية، فلا يحاسبهم ولا يؤاخذهم إلا على ما يبلغهم.

١١- في قوله تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ إشارة وبشارة، أما الإشارة فإلى فتح مكة المكرمة، وأما البشارة فبانتشار الإسلام وبلوغه أقطار الأرض.

---

١ – مسند أحمد ٤١١/٥، رقم ٢٣٥٣٦، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد٢٢٦/٣: رجاله رجال.

٢ – الأحاديث المختارة ٢٠٩/١٠، رقم ٢١٧.

المبحث الرابع تفسير الآية الرابعة

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

- **مناسبة الآية الكريمة لما قبلها**

لما أكدت الآية السابقة على أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر تحويل القبلة حق من الله، وكان ذلك مثارًا للطمع في اتباعهم قبلته -ﷺ- ومظنًا لإيمانهم، قطع هنا هذا الظن بالقسم على عدم اتباعهم قبلته مهما كثرت الحجج والأدلة؛ وذلك لكبرهم وعنادهم، وتأبيهم على الحق، وميلهم إلى المخالفة، وعدم تغير أوصافهم وأخلاقهم(١).

- **سبب نزول الآية الكريمة**

قيل في سبب نزولها أن يهود المدينة ونصارى نجران قالوا للرسول -ﷺ-: «ائتنا بآية كما أتى الأنبياء قبلك فنزلت هذه الآية قاله مقاتل»(٢).

والصحيح أنها تابعة لما قبلها، قال ابن الخطيب: «والأقرب أن هذه الآية ما نزلت في واقعة مبتدأة، بل هي من بقية أحكام تحويل القبلة»(٣).

- **معاني المفردات**

- ﴿آيَةٍ﴾: الآية هنا الحجة والعلامة، وأصلها: أَيَّة بالتشديد فاستثقل التشديد في الآية فأبدلوا من الياء الأولى ألفًا لانفتاح ما قبلها(٤).

وللآية معانٍ أخرى في استعمالاتها اللغوية، فهي تأتي بمعنى الموعظة والعبرة والشخص والجماعة والطائفة المتصلة من القرآن إلى انقطاعها وغير ذلك، والجمع: آي، وآياي، وآيات(٥).

- ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: الهوى مصدر هواه إذا أحبه واشتهاه، وجمعه: الأهواء وهو في الأصل: الميل أي: ميل النفس إلى ما تحب، فإن مالت إلى الخير والموافقة فهو الهوى الممدوح، وإن مالت إلى الشر

---

١ – نظم الدرر ٢٢٢/٢.

٢ – زاد المسير ١٢٢/١، التفسير الكبير ١١٤/٤.

٣ – اللباب في علوم الكتاب ٤٦/٣.

٤ – تاج العروس ١٢٢/٣٧.

٥ – المعجم الوسيط ٣٥/١.

والمخالفة فهو المذموم، وقد غلب استعمال الهوى فيما يذم حتى أطلق على النفس المائلة للشهوة[١]، قال الراغب: الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة[٢].

- **المسائل والأحكام**

١- ﴿ لَئِنْ﴾ يقع بها الشيء لوقوع غيره وهي تستعمل فيما يستقبل، وجوابها يقع في المستقبل؛ بخلاف «لو» فإنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره، وتستعمل في الماضي وجوابها يقع بالماضي، تقول: لو جئتني لأكرمتك، ولئن جئتني أكرمْك، ولو دعوتَ دعوتُ، ولئن دعوتَ لأدعون.

وقد أجيبت (لئن) بجواب (لو) هنا لأن العرب استجازت ذلك تبعًا لاستجازتها في الفعل المستقبل والماضي أن يقوم أحدهما مقام الآخر[٣].

قال الفراء[٤]: «أجيبت (لئن) بما يجاب به لو، ولو في المعنى ماضية و(لئن) مستقبلة ولكن الفعل ظهر فيهما بـ «فَعَل» فأجيبتا بجواب واحد، وشبهت كل واحدة بصاحبتها. . . ومَثَّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾[٥]، فأجاب «لئن» بجواب «لو» وأجاب «لو» بجواب «لئن» فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، ومما ومما يدل على «إن» بمعنى « لو» مجيء «ما» في الجواب بدون الفاء، فإنها إذا لك تكن بمعناها فلا تجاب بـ«ما» وحدها، بل لابد من الفاء، مثل: إن تزرني فما أزورك.

وعلى هذا يكون جواب القسم المحذوف محذوفًا لدلالة جواب« إن» عليه وهو مبني على مذهبه من أن القسم إذا تقدم على الشرط جاز أن يكون الجواب للشرط دون القسم، وهو مخالف لمذهب البصريين، فالجواب عندهم يكون للقسم بشرطه المذكور في النحو [٧].

وقد ذهب سيبويه إلى أن ﴿مَا تَبِعُوا﴾ جواب القسم وضعف في الماضي موضع المستقبل أي: لا يتبعون أو ما يتبعون؛ لأن «لو» و «إن» لإيجاب إحداهما بجواب الأخرى لأن معناهما مختلف، فالجواب إذن للقسم لا للشرط ولذلك لم تدخله الفاء، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وهو منفي بما ماضي الفعل مستقبل أي: ما يتبعون قبلتك؛ لأن الشرط قيد في الجملة، والشرط مستقبل فوجب أن يكون مضمون الجملة مستقبلًا ضرورة؛ لأن المستقبل لا يكون شرطًا في الماضي، وجواب الشرط في الآيتين محذوف سد مسده جواب القسم، ولذلك أتى فعل الشرط ماضيًا في اللفظ، لأنه إذا

---

١ – المعجم الوسيط ١٠٠١/٢.

٢ – المفردات ص٥٤٨.

٣ – التفسير الكبير ١٠٨/٤.

٤ – معاني القرآن ٨٤/١.

٥ – سورة الروم، آية: ٥١.

٦ – سورة البقرة، آية: ١٠٣.

٧ – البحر المحيط ٢٦/٢.

كان الجواب محذوفًا وجب مُضِيُّ فعل الشرط لفظًا، إلا في ضرورة الشعر فقد يأتي مضارعًا، قاله أبو حيان مرجحًا مذهب سيبويه معللًا بقلة استعمال «إن» بمعنى «لو» قال: «واستعمال «إن» بمعنى «لو» قليل فلا ينبغي أن يحمل على ذلك إذا ساغ إقرارها على أصل وصفها»[١].

٢- المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود من سكان المدينة الذين شنعوا في أمر القبلة، وإنما ذكر النصارى ضمن الذين أوتوا الكتاب وإن لم يشتركوا معهم لبيان أنهم واليهود في ذلك سواء، وعبر عنهم بأهل الكتاب تعريضًا بهم وتشنيعًا عليهم[٢].

٣- اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ في الآية هل المقصود بهما عموم أهل الكتاب، كما قال به قوم: منهم الحسن والجبائي، أم علماؤهم كما قال به الأصم محتجًا بالسياق قبلها وبعدها؛ إذ هو في علمائهم فهم الذين يَعْلمون أنه الحق و﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، فكذلك ما بينهما، ولأنهم الذين يعاندون الأدلة فاتباع الهوى متحقق فيهم، وبأن العموم يستلزم الكذب لإيمان كثير منهم، كما يستلزم امتناع الكتمان لعدم جوازه على الجمع العظيم، وقد ردَّ هذا بأن مخالفة السياق جائز غير ممتنع، وبأن اتباع الهوى متحقق في الكل في العلماء بالإصرار، وفي العوام بالاتباع، وبأن قولنا كل اليهود لا يؤمنون مغاير لقولنا: إن أحدًا منهم لا يؤمن، وبأن عدم جواز الكتمان على الجمع العظيم فيه نظر لا يخفى[٣].

فالظاهر أن المراد العموم، وهو لا يتنافى مع إيمان الأفراد، قال الحسن والجبائي: كأنه قال لا يجتمعون على اتباع قبلتك على نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ويكون إذ ذاك إخبار عن المجموع من حيث هو مجموع لا حكم على الأفراد[٤].

قلت: ثمة أمر آخر يمكن أن يضاف هنا، وهو أنه تعالى يخبر عنهم حال كونهم على الكفر، فإنهم جميعًا لا يتبعون قبلته -ﷺ- أما إذا آمن أحدهم فإنه لا شك يتبع قبلته بعد تغير حاله وخروجه من مجموعهم فلا يشمله الحكم كما لا يخفى.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ جملة خبرية باقية على أصلها، فلا يتطرق إليها النسخ، وهي بذلك قاطعة لرجاء أهل الكتاب وطمعهم في عودة النبي -ﷺ- إلى قبلتهم وهو الظاهر من السياق الذي يحمل معنى المقابلة ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أي: ما هم بتاركي باطلهم، وما أنت بتارك الحق، خلافًا لمن جعل الجملة الخبرية بمعنى النهي أي: ولا تتبع قبلتهم[٥].

---

١ - المحرر الوجيز ١/٢٢٢، البحر المحيط ٢/٢٧، الكتاب لسيبويه ٣/١٠٨.

٢ - تفسير ابن كثير ١/٤٦١.

٣ - البحر المحيط ٢/٢٨.

٤ - التفسير الكبير ٤/١٠٨.

٥ - روح المعاني ١/٤١٠، إرشاد العقل السليم ١/١٧٥، فتح القدير ١/١٧٨.

٥- أفرد القبلة في قوله ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ وإن كانت مثناة مراعاة لاشتراكهما في البطلان ومخالفة الحق، قال الزمخشري: «فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة» [١]، أو الأصل المقابلة في اللفظ، ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ أو على معنى التوزيع؛ لأنه لا يجمع بينهما، وقال ابن عاشور: « لأنه إذا اتبع قبلة إحدى الطائفتين كان غير متبع قبلة الطائفة الأخرى»[٢].

٦- المراد بالبعضين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾: من هو باق على دينه من أهل الكتاب، وهو الظاهر خلافًا لمن جعل أحد البعضين من آمن منهم، والثاني: من بقي على دينه ولا يخفى بعده وعدم فائدته إذ هو من قبيل تحصيل الحاصل[٣].

٧- اختلف في الخطاب بهذه الآية هل هو للأمة في شخصه -ﷺ- وصورته، حيث لا يجوز عليه أن يفعل ما يكون به ظالمًا لعصمته، أو هو للنبي -ﷺ-؟ قولان أساسيان للعلماء:

القول الأول: أن المخاطب بهذه الآية النبي -ﷺ-والمراد أمته ممن يجوز عليه اتباع الهوى والظلم، أما النبي ﷺ- فمعصوم من ذلك وإنما خوطب به تعظيمًا للأمر وتفخيمًا لشأنه حتى تقع النفرة منه. . قال أبو حيان: « ونظير ذلك قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين»[٤].

القول الثاني: أن المخاطب بهذه الآية النبي -ﷺ- وذلك لا يقتضي وقوع ذلك منه؛ لأنه مستحيل بحكم الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ والمعلق على المستحيل مستحيل، وذلك كقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ومعلوم أن وقوع الشرك منه مستحيل، فاستحال ما تعلق وقوعه عليه[٥].

قال أبو حيان: « وتعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط، يقول الرجل لامرأته: إن صعدت إلى السماء فأنت طالق، ومعلوم امتناع صعودها إلى السماء، وقال تعالى في الملائكة الذين أخبر عنهم: أنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّم كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾، وإذا اتضح ذلك سهل ما ورد من هذا النوع، وفهم من ذلك الاستحالة؛ لأن المعلق على المستحيل مستحيل، ويصير معنى هذه الجملة، التي ظاهرها الوقوع على تقدير امتناع الوقوع، ويصير المعنى: لا يعد ظالما، ولا تكونه، لأنك لا تتبع أهواءهم، وكذلك لا يحبط عملك، لأن إشراكك ممتنع، وكذلك لا يجزى أحد من الملائكة جهنم، لأنه لا يدعي أنه إله»[٦].

---

١ - الكشاف ٢٠٤/١.
٢ - التحرير والتنوير ٣٦/٢.
٣ - المحرر الوجيز ٢٢٣/١.
٤ - البحر المحيط ٢٩/٢.
٥ - أنوار التنزيل ١١٢/١، مدارك التنزيل ١٤١/١.
٦ - البحر المحيط ٢٩/٢.

وقد ذهب الإمام الزمخشري إلى أن الخطاب في الآية للنبي -ﷺ- بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿ومَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ لكن على سبيل الفرض والتقدير، قال: وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير، واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق[١].

قال أبو السعود: فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهي عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك؟! ! [٢].

فتبين بذلك جواز مخاطبة النبي -ﷺ- بهذه الآية وأمثالها من غير ترتب مستحيل أو وقوع محذور وهو المستفاد من ظاهر الآية كما لا يخفى.

وفي الآية أقوال أخرى أعرضت عنها إما لأنها تدخل في هذين القولين كقول الزجاج: الخطاب للنبي ولسائر أمته، فأول الخطاب خاص للنبي -ﷺ- وآخره دليل أن الخطاب عام، وإما لبعدها عن الصواب، كقول من فسر اتباعه -ﷺ- أهواءهم بالمداراة والملاينة طمعًا في إيمانهم، وحرصًا على استمالتهم مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾، ولا يخفى خطؤه في قوله واستدلاله معًا، فالآية دليل على تثبيت الله تعالى لنبيه -ﷺ-، فلم يركن إليهم طرفة عين، قال ابن عباس: « كان رسول الله -ﷺ- معصومًا، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه» فكيف يستدل بها على المداراة والميل! !

- المعنى العام للآية الكريمة

بعد أن بين الله تعالى لنبيه -ﷺ- أن اليهود والنصارى - خاصة أحبارهم- يعلمون يقينًا أنه حق، وأن تحوله إلى الكعبة حق، كشف له هنا عن حالة قلوبهم تجاه هذا الحق من كبر وعناد ومخالفة على عادتهم في التعامل مع الحق استمراء للباطل دون أدنى شبهة. . فهم بذلك لن يتبعوا قبلته -ﷺ- أبدًا، فضلًا عن اتباعه، مهما كثرت الحجج والأدلة لأنها لا تفيد في حالتهم لجزمهم بعدم اتباع الحق عن يقين لا عن جهل.

ولذا أقسم الله تعالى لنبيه -ﷺ- هنا مؤكدا أنهم لن يتبعوا قبلته حتى ولو جاءهم بكل آية، أي: مصطحبًا لكل آية، فالباء للمصاحبة، أي: مصطحبًا كل برهان ودليل عليها، لأن الأمر لا يتوقف على معرفة الدليل، بل على داء عضال في قلوبهم فلا مطمع للحق فيها.

وفي هذا تسلية للرسول -ﷺ- وتسرية عنه إذ كان يحزنه ذلك؛ لكمال حرصه على هداية الخلق.

ثم نزه الله نبيه -ﷺ- عن اتباع قبلتهم بقوله: «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» تأييسًا لهم وقطعًا لأطماعهم وخداعهم في محاولات العودة إلى قبلتهم؛ لأن ذلك يتضمن اتصافه بمخالفتهم، ولذا كان أبلغ من أن

---

١ - الكشاف ٢٠٣/١.

٢ - إرشاد العقل السليم ١٧٦/١.

يقول له: « ولا تتبع قبلتهم»، كما أن هذه الجملة: « وما أنت بتابع قبلتهم» أبلغ في النفي من جملة: « ما تبعوا قبلتك» من حيث تكرر الاسم فيها مرتين وتأكيد النفي فيها بالباء.

وقد سبق بيان أن الجملة خبرية باقية على أصلها لفظًا ومعنى، وهو الظاهر من السياق، خلافًا لمن جعلها بمعنى النهي، أي: لا تتبع قبلتهم، بمعنى: دم على ما أنت عليه من عدم اتباعها، وإن جنح إليه كثير من المفسرين.

ثم سلى الله رسوله -ﷺ- مرة ثانية ببيان حالهم فيما بينهم، فهم وإن اتفقوا ظاهرًا على خلافك، مختلفون فيما بينهم، فلا اليهود تتبع قبلة النصارى نحو المشرق ولا النصارى تتبع قبلة اليهود نحو بيت المقدس، فكيف يدعونك إلى ترك قبلتك واتباع قبلتهم مع اختلافهم واختلافها معًا؟! !

ثم حذَّر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من اتباع أهوائهم بعد تقديم تنزيهه -ﷺ- عن ذلك لاستحالة وقوعه منه ولو بالملاينة بعد بيان الحق له فيه بالدلائل والآيات وحيًا من ربه، وذلك حفظًا لمنزلته وغيرة عليه وتثبيتًا له. . .

قال الراغب: «فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره، فذوا المنزلة الرفيعة إلى تحديد الإنذار عليه أحوج؛ حفظًا لمنزلته، وصيانة لمكانته»(١).

قلت: وفي ذلك من زيادة التحذير لغيره من اتباع الهوى – خاصة أهل العلم- بطريق الأولى ما لا يخفى، ولذا جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ مؤكدًا بعدة مؤكدات منها: القسم، واللام الموطئة له، وإنَّ، والتعريف، والجملة الاسمية وغيرها، وإيثار التعبير بقوله: ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على (ظالم) أو (الظالم) ليفيد التحقق بالدخول في زمرتهم، مبالغة في التحذير وتعظيمًا للحق وأهله.

- الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة

١- كمال حرصه -ﷺ- على هداية الخلق بإقامة الأدلة وسوق كل الحجج والبراهين لبيان الحق لهم حتى يؤمنوا، وبذله في سبيل ذلك غاية ما يستطيع شفقة عليهم ورحمة بهم، حتى كاد أن يهلكه الحزن أسفًا على تكذيبهم وكفرهم حتى خاطبه مولانا بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وبقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَن لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وبقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

٢- بيان ما تنطوي عليه قلوب أهل الكتاب من كبر وعناد وحقد تجاه الحق يمنعهم من الاستجابة له مع علمهم به، فليست القضية قضية أدلة وحجج، بل قضية مرض في قلوبهم يحول بينهم وبين الانتفاع بالأدلة والخضوع للحق.

---

١ - تفسير الراغب ١/٣٣٧.

٣- تنزيه النبي -ﷺ- عن اتباع أهل الكتاب في قبلتهم وعصمته -ﷺ- من محاولات مكرهم وخداعهم وبيان تمسكه بالحق الذي أمره الله به.

٤- كشف حال أهل الكتاب فيما بينهم، وما هم عليه من تدابر واختلاف في القبلة وغيرها حتى لا يرى بعضهم بعضًا على شيء أصلًا، وذلك واقعهم مهما حاولوا إظهار اتفاقهم، فإنهم لا يتفقون إلا على مواجهة الحق بالباطل، ولذا فهم متفقون على محاربة الإسلام.

٥- التحذير من اتباع اليهود والنصارى فيما يدينون به من عقائد وعبادات وأعمال وبيان أنهم ليسوا على هدى بل على هوى وضلال.

٦- أن الإنسان لا يؤاخذ بالخطأ إلا إذا تعمده بعد إقامة الحجة عليه ببيان حكم الله ورسوله وأقوال أهل العلم فيه لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[١] قال الكرماني: وزيدت معه مِن التي لابتداء الغاية لأن تقديره: من الوقت الذي جاءك فيه العلم بالقبلة[٢].

٧- التنويه بشأن العلم وتعظيم منزلته وشرفه- سيما علم الشريعة- حيث عبر به هنا عن الوحي ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الوحي، قال الألوسي: بقرينة إسناد المجيء إليه.

٨- التحذير الشديد من اتباع الهوى، ومخالفة الحق فيه بعد معرفته والتحقق بالعلم، وذلك لما رتب عليه من انتظام فاعله في سلك الظالمين، ودخوله في جملتهم.

٩- دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم، ذكره الفخر الرازي، قلت: وفي هذا تنويه بشأن العلماء أيضًا وأن الحجة عليهم أقوم من غيرهم.

١٠- في الآية إشارة إلى أن هذه القبلة لا تصير منسوخة أبدًا، ذكره الألوسي، كما أنها تشير إلى أن من عرف الله حق معرفته فمن المحال أن يرتد ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

١١- تلطف الله في الخطاب للرسول -ﷺ- حيث قال: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: إنك ظالم.

١٢- شدة عناية الله تعالى بنبيه -ﷺ- وغيرته على مقامه الشريف بتسليته وتثبيته وتحذيره من خداعهم وأعمالهم.

١٣- ارتباط القبلة بالدين ارتباطًا وثيقًا إذ هي من خواصه ولوازمه وأهم شعائره وأعلامه الظاهرة ولذا كانت مفارقتها مفارقة للدين كله.

١٤- جواز تعليق الحكم على شرط لا يتحقق.

---

١ - جاءت الآية في مواضع أخرى بدون زيادة «من» كقوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ سورة الرعد، من الآية: ٣٧، وقوله تعالى: ﴿ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ سورة البقرة، من الآية: ١٢٠، لاختلاف السياق فيها.

٢ - البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٧٧.

المبحث الخامس: تفسير الآيتين الخامسة والسادسة

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

- مناسبة الآيتين الكريمتين لما قبلها

جاءت هذه الآية مؤكدة لما سبق من أن أهل الكتاب يعلمون يقينًا أن أمر تحويل القبلة حق؛ لأن النبي –ﷺ– حق، لكنهم يحكمون أهواءهم في الحق كبرًا وعنادًا وفسادًا، فأراد أن يضعهم هنا أمام خداع أنفسهم لهم بتشبيه بليغ لا يدع مجالًا بعده لشائبة شك في حالهم الذي كشفه القرآن لهم ولغيرهم واصفًا ما تبطنوه من خيانة وظلم قلوبهم بصفة كتمان الحق التي يستحقونها بجدارة وامتياز [١].

- سبب النزول

قال الواحدي في أسباب النزول: نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ– بنعته وصفته ومبعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان [٢].

قال عبد الله بن سلام: «لأنا أشد معرفة برسول الله – ﷺ– مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقًا يقينًا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام»[٣].

وفي رواية الكلبي عن الربيع عن ابن عباس: قال ابن سلام لعمر –τ–: عرفته بما نعته الله لنا في كتابنا أنه هو، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه، فقال له عمر: وفقك الله فقد أصبت وصدقت[٤].

- معاني المفردات

- يكتمون الحق: يسترونه ويخفونه في أنفسهم، من كتم الشيء: أخفاه ولم يفشه، وكان شديد التحفظ عليه، أو ستره و طمسه مبالغة في كتمانه، والكتمان: نقيض الإظهار والإعلان[٥].
- الممترين: الشاكين، فالمراد الشك، يقال: امترى في الشيء وتمارى تماريًا: إذا شك فيه، وأصله في اللغة: الجدل وأن يستخرج الرجل من مناظره كلامًا، من مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت

---

١ – نظم الدرر ٢/٢٢٦.

٢ – أسباب النزول ١/٤٤.

٣ – بحر العلوم ١/١٠٢، معالم التنزيل ١/١٨٠، تفسير السمعاني ١/١٥٣، تفسير ابن كثير ١/٤٦٢.

٤ – الكشف والبيان ٢/١٣، الدر المنثور ١/٣٥٧.

٥ – لسان العرب ١٢/٥٠٦، المعجم الوسيط ٢/٧٧٦.

لبنها[١]، ويقال: ماراه مماراة ومراء: جادله، فالامتراء تارة يكون بمعنى الشك، وتارة يكون بمعنى الجدل[٢]، وقال الراغب: « المرية التردد في الأمر وهو أخص من الشك، والامتراء والممارأة: المحاجة فيما فيه مرية»[٣].

- **المسائل والأحكام**

١- المراد بـ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ علماؤهم، فهم الذين يعرفونه من كتابهم كما يعرفون أبناءهم، فاللفظ وإن كان عامًا لكنه مختص بهم، قال الإمام الرازي: « والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والجمع العظيم الذين علموا شيئا استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة، ألا ترى أن واحدا لو دخل البلد وسأل عن الجامع لم يجز أن لا يلقاه أحد إلا بالكذب والكتمان، بل إنما يجوز ذلك على الجمع القليل»[٤].

وقال الإمام الألوسي: «والمراد بهم العلماء؛ لأن العرفان لهم حقيقة، ولذا وضع المظهر موضع المضمر»[٥]، وقيل: المراد به مؤمني أهل الكتاب على ما سبق في أسباب النزول، والأول أظهر، وسبب النزول لا يمنع منه ولا يعارضه كما لا يخفى.

٢- اختلف في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ ﴾ على قولين: الأول: أنه يعود إلى أمر القبلة، وأنها الكعبة البيت الحرام وبه قال ابن عباس والربيع وقتادة والسدي وغيرهم، واقتصر عليه الطبري في تفسيره، وهو مرجوح بما سيأتي[٦].

الثاني: أن الضمير يعود إلى النبي -ﷺ- وبه قال مجاهد وهو رواية عن ابن عباس وقتادة أيضًا، واقتصر عليه الثعلبي في الكشف والبيان، والبغوي في معالم التنزيل، وابن كثير في تفسيره وغيرهم، وإليه ذهب جمهور المفسرين[٧].

قلت: ويؤيده ما ورد في سبب النزول، وسبق تكرر الخطاب له -ﷺ- بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾. . . إلخ مما يدل على عود الضمير إليه -ﷺ-

١ - تاج العروس ٣٩/٥٢٤.
٢ - لسان العرب١٥/٢٢٧.
٣ - المفردات ص٤٦٧.
٤ - التفسير الكبير٤/١١٠.
٥ - روح المعاني ١/٤١١.
٦ - جامع البيان ٣/١٨٧، ١٨٨، تفسير ابن أبي حاتم ١/٢٥٥.
٧ - الكشف والبيان ٢/١٣، معالم التنزيل ١/١٨٠، تفسير ابن كثير ١/٤٦٢.

ملتفتًا إليه عن ضمير الخطاب، قال مكي بن أبي طالب في الهداية: ويكون التأويل « يعرفونك يا محمد» لكن صرف الكلام من المخاطبة إلى الغيبة على مذهب العرب[١].

وقال أبو حيان في البحر: «وحكمة هذا الالتفات أنه لما فرغ من الإقبال عليه بالخطاب، أقبل على الناس فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ واخترناهم لتحمل العلم والوحي يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآي السابقة وأمرناه ونهيناه لا يشكون في معرفته، ولا في صدق أخباره بما كلفناه من التكاليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة، لما في كتابهم من ذكره ونعته، والنص عليه يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[٢].

كما يؤيد هذا القول التشبيه بمعرفة الأبناء والتخصيص بأهل الكتاب، قال الألوسي: فإن تشبيه معرفته -ﷺ- بمعرفة الأبناء دليل على أنه المراد، أي: لأنه تشبيه مناسب، وعليه فإن التشبيه يأبى أن يكون عود الضمير لأمر تحويل القبلة وغيره؛ لأنه تشبيه غير مناسب.

قال الإمام الألوسي بعد أن ذكر القول الأول: «**وفيه** أن التشبيه يأبى ذلك؛ لأن المناسب تشبيه الشيء بما هو من جنسه، فكان الواجب في نظر البلاغة حينئذ كما يعرفون التوراة أو الصخرة، وأن التخصيص بأهل الكتاب يقتضي أن تكون هذه المعرفة مستفادة من الْكِتابَ، وقد أخبر سبحانه عن ذكر نعته -ﷺ- في التوراة والإنجيل »[٣].

وفي مرجع الضمير أقوال أخرى غير هذين القولين، كعوده على القرآن بادعاء حضوره في الأذهان وهو بعيد، أو عوده على العلم كأقرب مذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، والمراد من ذلك العلم النبوة فرجع الأمر إلى النبي -ﷺ- فكان دليلًا على عود الضمير إليه كما ذكر الفخر الرازي[٤].

٣- قال الزمخشري في فنقلاته التفسيرية: فإن قلت: لم اختص الأبناء؟ قلت: لأنّ الذكور أشهر وأعرف، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألصق، وتبعه في ذلك الأئمة: الرازي، وأبو السعود، والألوسي وغيرهم[٥].

وهو محل نظر؛ لأن لفظ الأبناء قد يطلق ويراد به الذكور والإناث كما يقع على الذكور فقط كما ذكر الكفوي في الكليات[٦]، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ

١ - الهداية إلى بلوغ النهاية ٥٠٢/١.

٢ - البحر المحيط ٣٣/٢.

٣ - روح المعاني ٤١١/١.

٤ - التفسير الكبير ١١١/٤.

٥ - الكشاف ٢٠٤/١، التفسير الكبير ١١١/٤، إرشاد العقل السليم١٧٦/١، روح المعاني ٤١١/١، ٤١٢، التحرير والتنوير ٤٠/٢.

٦ - الكليات ص٢٧.

أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾، وغيرها من آيات لا يصح معناها إن خصصت بالذكور كما لا يخفى، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾.

ولذا قال أحمد بن المنير تعليقًا على الزمخشري: « بنى كلامه هذا على أن الإناث لا يدخلن في لفظ الأبناء كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك بل اللفظان سواء في شمول الإناث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف إذا وقف على بنيه وبني بنيه كما يدخلن في لفظ الأولاد، هذا مذهب مالك-τ-[١].

قلت: وهو رواية عن أبي حنيفة أيضًا حيث قال في رجل أوصى بثلث ماله لبني فلان وله بنون وبنات، أن الثلث لهم جميعًا وهم فيه سواء، وبذلك قال الحسن وإسحاق وأبو ثور وأبو يوسف ومحمد والثوري وغيرهم[٢].

وقال أبو حيان: « ويحتمل أن يراد بالأبناء الأولاد فيكون ذلك من باب التغليب»[٣].

فالمسألة إذًا فيها خلاف من ناحية اللغة والفقه أيضًا.

٤- المراد بالحق في قوله تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ يختلف باختلاف مرجع الضمير في « يعرفونه» فإن كان مرجع الضمير إلى النبي -ﷺ- كان المراد بالحق هنا: النبي وصفته في التوراة وهو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما-، وإليه ذهب جمهور المفسرين كما سبق، وإن كان مرجع الضمير إلى أمر القبلة والكعبة كان هو المراد بالحق[٤].

وعلى كلا القولين تكون الألف واللام في ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ للعهد، وقد تكون للجنس، قال أبو حيان: على معنى: أن الحق هو من الله لا من غيره أي ما ثبت أنه حق فهو من الله كالذي عليه الرسول، وما لم تثبت حقيقته فليس من الله كالباطل الذي عليه أهل الكتاب[٥].

٥- اختلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ على ما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وكون الخطاب بذلك جائز للنبي -ﷺ- لا يعني وقوع الشك أو ترقبه من المنهي عنه على مقتضى النهي، بل لحفظ مقامه الذي يقتضي التخصيص بالتحذير على ما سبق بيانه[٦].

---

١ - حاشية الكشاف ٢٠٤/١.

٢ - مختصر اختلاف العلماء ٤٣/٥، تحفة الفقهاء ٢١٣/٣، المغني ٨٧/٦.

٣ - البحر المحيط ٣٤/٢.

٤ - جامع البيان ١٨٩/٣، بحر العلوم ١٠٢/١، المحرر الوجيز ٢٢٣/١، ٢٢٤.

٥ - البحر المحيط ٣٤/٢.

٦ - أنوار التنزيل ١١٣/١، البحر المديد ١٧٩/١، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ١٥٥/٣.

وقال أبو السعود: وليس المراد به نهي الرسول عن الشك فيه؛ لأنه غير متوقع منه – عليه الصلاة والسلام- وليس بقصد واختيار، بل إما تحقيق الأمر، وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ[١]. قال الألوسي: فيجعل النهي مجازا عن ذلك الأمر[٢].

هذا على أن المراد بالمراء هنا: الشك، فإن كان المراد به الجدل على أصل الكلمة فلا إشكال فيه كما سيأتي؛ لأنه نهي للنبي -ﷺ-عن مجاراتهم في جدالهم الذي يشغبون به على وجه المغالبة والعناد دون قصد لبيان الحق، أو اعتراف به مما يضيع به الزمان وتشتد به الخصومة والمنازعة دون طائل. . ولا شك أن هذا من الجدل المذموم الذي يترك مهما كان الحرص شديدًا على الهداية وظهور الحق.

- **المعنى العام للآيتين الكريمتين**

بين الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين حقيقة ما عليه أحبار أهل الكتاب من شدة معرفتهم بالنبي -ﷺ- من كتبهم بأوصافه الشريفة ونعوته المنيفة، والتي من جملتها أنه يصلي إلى القبلتين، مشبهًا معرفتهم به -ﷺ- وهي معرفة عقلية بمعرفة أبنائهم، وهي معرفة حسية لا تقبل اللبس أو الاشتباه، فكذا معرفتهم به -ﷺ- لا تشتبه عليهم؛ لأنها مستفادة من كتبهم التي يؤمنون بها، كأنه قال الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه.

ويصح أن يكون المراد بمعرفتهم له -ﷺ-: معرفة شخصه وصورته التي تمثل الصورة المحسوسة الناتجة عن المعرفة العقلية، وعندئذ تكون المعرفتان متعلقتان بالمحسوس المشاهد، وهو آكد في التشبيه مما سبق ويقويه التشبيه بالأبناء على ما ذكر أبو حيان واختاره، والعدول بالتعبير عن العلم إلى المعرفة التي تتعلق غالبًا بالذوات والأمور المحسوسة.

وأيًا ما كان الأمر فإن الله سبحانه وتعالى يبين أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله-ﷺ- معرفة لا تشتبه عليهم كمعرفتهم لأبنائهم التي هي أشهر من غيرها، والتي هي أشد من معرفتهم لأنفسهم، حيث لا يمر على الإنسان زمان إلا وهو يعرف ابنه بخلاف معرفة النفس المفقودة زمن الطفولة، ومع ذلك فإن فريقًا منهم وهم الذين ظلوا على كفرهم وعنادهم فلم يسلموا، يكتمون هذا الحق الأبلج في سواد قلوبهم اللجلج، محاولين إخفاءه وهيهات هيهات، ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[٣].

---

١ – إرشاد العقل السليم ١/١٧٧.

٢ – روح المعاني ١/٤١٢.

٣ – سورة الصف، من الآية: ٨.

ووصف بعضهم بالكتمان وتقييده بفريق منهم دال على أن فريقًا آخر من أحبارهم علموا هذا الحق فأظهروه وآمنوا برسول الله -ﷺ- كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة من اليهود، وتميم الداري من النصارى وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: مبتدأ وخبر، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هذا» أو «هو» والإشارة فيه إلى النبي -ﷺ- وما عليه مما يشمل أمر القبلة، أو إلى الحق المكتوم إجمالًا، أي: أن ما يكتمونه هو الحق لا ما يظهرونه، وفي ذلك من التقرير لحقيته والتثبيت له -ﷺ- ما لا يخفى، ولذلك ذيل الآية بقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: الشاكين في كتمانهم الحق الذي أنت عليه عالمين به، ولا تجادلهم في ذلك فإن جدالهم لا يفيد؛ لإصرارهم مسبقًا على الباطل، وهذا لا يستلزم الشك منه -ﷺ- كما سبق- ثم إن الخطاب يصلح لكل من يتأتى له الخطاب كما لا يخفى.

وقال الراغب: ليس هذا بنهي عن الشك لأنه لا يكون بقصد من الشاك، بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستعمالها، وعلى ذلك قوله: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1].

- **الدروس التربوية المستفادة من الآيتين الكريمتين**

١- أن علماء أهل الكتاب المعاصرين للنبي -ﷺ- يعرفونه معرفة تامة بنعته وصفته ومبعثه من كتبهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾[2]، وكما جاء في حديث البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ رضي الله عنهما لما سئل عن صفة رسول الله -ﷺ- في التوراة فقال: « أَجَلْ والله إنه لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ في الْقُرْآنِ ﴿ يا أَيُّهَا النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أنت عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ ليس بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا سَخَّابٍ في الْأَسْوَاقِ ولا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حتى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إلا الله وَيَفْتَحُ بها أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»[3]، لكن فريقًا منهم كتم هذه المعرفة كبرًا وحقدًا وحسدًا من عند أنفسهم وكتمًا للحق بعد ظهور نوره -ﷺ-، ومخالفة للميثاق الذي أخذه الله عليهم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[4].

٢- تؤصل الآية لقاعدة من أهم قواعد الإنصاف والحكم على من نختلف معهم، حيث لم تحكم على أهل الكتاب جميعًا حكمًا واحدًا بكتم الحق، بل قيدته بذكر فريق منهم حفظًا لصورة من

١ - تفسير الراغب ٣٣٨/١.

٢ - سورة الأعراف، من الآية: ١٥٧.

٣ - صحيح البخاري، كِتَاب الْبُيُوعِ، بَاب كَرَاهِيَةِ السَّخَبِ في السُّوقِ، رقم ٢٠١٨.

٤ - سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

أظهر الحق منهم، وإثباتًا لحقه في ألا يوصف بغير وصفه وإن كان نفرًا قليلًا في طائفة عظيمة، وفي هذا من العدل والإنصاف والحكمة البالغة، ما يدل على دقة المنهج القرآني في التعامل مع الآخر، وهو ما يحتاجه كثير من المسلمين اليوم في التعامل حتى مع أنفسهم، إذ نرى كثيرًا من الفرق الإسلامية المتنازعة في الفروع ترمي كل فرقة منهم أختها بالأحكام المطلقة والصفات المرسلة دون تخصيص أو تقييد، وإن كان هذا الأمر يتعلق بنفر قليل منهم شذوا فيه عن فرقتهم، نسأل الله تعالى السلامة في الدنيا وفي يوم القيامة.

٣- أن صفة « كتمان الحق» من أبرز وأسوأ الصفات التي اتصف بها أهل الكتاب والتي كانت سببًا في كفرهم وعنادهم، وفيها من الظلم والخيانة والزور ما يجعلها صفة من أكبر الكبائر، ولذا لعن الله من يتصف بها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[١] فينبغي على المؤمن أن يحذر من أي شيء يمكن أن ينطبق عليه به وصفها، ككتم العلم، والشهادة، والنصيحة وغيره، وأن ينقاد للحق إذا ظهرت آياته.

٤- أن الحق في أمور الدين والعقيدة هو ما ثبت أنه من عند الله سبحانه وتعالى، وغيره باطل لا شك فيه ولا يلتفت إليه كالأديان الوضعية الباطلة والديانات السماوية المنسوخة المحرفة.

٥- عناية الله بالنبي -ﷺ- عناية خاصة على ما تقتضيه إضافته إليه ﴿ مِنْ رَبِّكَ﴾.

٦- جواز النهي عن الشيء مع استحالة وقوعه ممن نهي عنه.

٧- حفظ الله تعالى لمقام نبيه -ﷺ- بتثبيته والغيرة عليه كما يقتضيه النهي والتحذير من أن يقع فيما هو غير متوقع منه أو مستحيل عليه.

٨- أن الشك ينافي الحق.

---

١ - سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

المبحث السادس: تفسير الآية السابعة

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

- مناسبة الآية الكريمة لما قبلها

هذه الآية تقرير لما سبق: من أهل الكتاب لا يتبعون الحق في أمر القبلة على وجه العناد، وحث للمسلمين الذين سارعوا إلى استقبال القبلة التي أمروا بها على المداومة و المسارعة إلى أنواع الخير، إلى أن يلقوا ربهم سبحانه وتعالى جميعًا، أيًّا كانت جهتهم في استقبال قبلتهم فيجازى كلُّ عامل بعمله، وفي هذا من التحذير لأهل الكتاب والتبشير للمسلمين ما لا يخفى[١].

- معاني المفردات

- وجهة: الوجهة الناحية والجانب والموضع الذي يتوجه إليه ويُقصد ويُستقبل كالقبلة ونحوها، وهي فعلة من المواجهة وفي معناها الجهة والوجه.

قال ابن منظور: والوجه والجهة بمعنى، والهاء عوض من الواو، والاسم الوِجْهَة والوُجهة بكسر الواو وضمها[٢]، والمراد بالوجهة هنا: القبلة[٣].

- موليها: مستقبلها بوجهه، فالتولية في هذا الموضع: استقبال كقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾، وقد تكون التولية انصرافًا كقوله تعالى: ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ فالتولي يكون بمعنى الإقبال، وبمعنى الانصراف[٤]، كما يكون بمعنى الإعراض وبمعنى الإتباع كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي: إن تعرضوا عن الإسلام، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي: من يتبعهم[٥].

قال الإمام الطبري: وَمَعْنَى التَّوْلِيَةِ هَا هُنَا الْإِقْبَالُ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِغَيْرِهِ: «انْصَرِفْ إِلَيَّ»، بِمَعْنَى أَقْبِلْ إِلَيَّ، وَالِانْصِرَافُ الْمُسْتَعْمَلُ إِنَّمَا هُوَ الِانْصِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ، ثُمَّ يُقَالُ: انْصَرَفَ إِلَى الشَّيْءِ بِمَعْنَى أَقْبَلَ إِلَيْهِ مُنْصَرِفًا عَنْ غَيْرِهِ. وَكَذَلِكَ يُقَالُ: وَلَّيْتُ عَنْهُ: إِذَا أَدْبَرْتَ عَنْهُ، ثُمَّ يُقَالُ: وَلَّيْتُ إِلَيْهِ بِمَعْنَى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ مُوَلِّيًا عَنْ غَيْرِهِ[٦]، وهو ما ذكره الفراء أيضًا في معاني القرآن مختصرًا[١].

---

١ – البحر المحيط ٣٥/٢، التحرير والتنوير ٤٢/٢.

٢ – لسان العرب١٣/٥٥٦.

٣ – زاد المسير ١٢٢/١، فتح القدير ١٨١/١.

٤ – تاج العروس ٢٤٩/٤٠، مختار الصحاح ص٣٠٦.

٥ – لسان العرب ٤١٤/١٥.

٦ – جامع البيان ٦٧٧/٢، ٦٧٨.

والمعنى هنا: ولكل أهل ملة قبلة هو مستقبلها، ومول وجهه إليها، وهذا على قراءة الجمهور: « مُوَلِّيها» بالياء (اسم فاعل) وقرأ ابن عامر « مولاها» بفتح اللام وألف بعدها (اسم مفعول) وهي قراءة ابن عباس أيضًا، أي: مصروفًا إليها وموجه نحوها(٢).

وقال الواحدي: « أي: كلٌ وُلِّي جهة، وهذه القراءة تؤول في المعنى إلى القراءة الأولى؛ لأن التولية في المعنى استقبال، وما استقبلك فقد استقبلته، وما استقبلته فقد استقبلك»(٣).

- ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾: السبق: الوصول إلي الشيء أولًا، وأصله التقدم في السير ثم تجوز به في كل تقدم، يقال: سبقه يسبقه ويسبقُه سبقًا: تقدمه(٤)، وفي لسان العرب وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا: بادروا(٥).

فالمراد به هنا: المبادرة والمسارعة، ويقصد به السبق لذاته لا للمغالبة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ ولا للخروج هربًا كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾.

والخيرات: جمع خير على معنى ذوات الخير، قال الألوسي: «والتأنيث باعتبار الخصلة»(٦).

والخير: اسم تفضيل على غير قياس، يقال: هو خير منه، ولا يقال أخير، وهو نقيض الشر، وجمعه: خيار وأخيار وخيور، ويطلق على الشرف، والكرم، والأصل، والطبيعة، وأعمال البر والطاعات، وقال ابن منظور: «الخيرات جمع خيرة، وهي الفاضلة من كل شيء»(٧).

والمراد به هنا: الأعمال الصالحة عمومًا والتي منها: المبادرة إلى استقبال الكعبة.

- أين ما: أين: ظرف مكان تضمن معنى الشرط، فهي اسم شرط تجزم فعلين، وهي مبنية على الفتح لتضمن معنى حرف الشرط أو الاستفهام.

و «ما»: مزيدة، و«تكونوا»: فعل الشرط و«يأت» جوابها. قال الزجاج: و«أينما» تجزم ما بعدها؛ لأنها إذا وصلت بـ«ما» جزمت ما بعدها فكان الكلام شرطًا، وكان الجواب جزمًا كالشرط، وإن كانت استفهامًا نحو: أين زيد، فإن أجبته أجبت بالجزم، تقول: أين بيتك أزرك، المعنى: إن أعرف بيتك أزرك(٨).

---

١ – معاني القرآن ٨٥/١.

٢ – التفسير الكبير ١١٤/٤، تفسير ابن كثير ٤٦٣/١، الجواهر الحسان ٣٣٢/١، التحرير والتنوير ٤٣/٢.

٣ – التفسير البسيط ٤٠١/٣.

٤ – معجم مقاييس اللغة ١٢٩/٣، المعجم الوسيط ٤١٤/١.

٥ – لسان العرب ١٥١/١٠.

٦ – روح المعاني ٤١٣/١.

٧ – لسان العرب ٢٦٤/٤.

٨ – معاني القرآن ٢٢٦/١.

- **المسائل والأحكام**

١- اختلف في المراد بالوجهة على أقوال:

الأول: أن المراد بها: قبلة وهو قول ابن عباس وعطاء والسدي وهي قراءة أُبي: ولكل قبلة، وعبد الله: ولكل جعلنا قبلة أي: ولكل أهل ملة قبلة هو مستقبلها ومول وجهة إليها[١].

الثاني: أن المراد بها: صلاتهم إلى بيت المقدس وصلاتهم إلى الكعبة، وهو قول قتادة، أي: ولكل ناحية وجهك إليها ربك يا محمد قبلة الله عز وجل موليها عبادة[٢]. وهو مندرج في الأول.

الثالث: أن المراد بها: طريقة كما في قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، أي: لكل نبي طريقة وهو قول الحسن.

والصحيح الأول لتقدم ذكر القبلة صراحة فيحمل الكلام على حقيقة معناه، وإن كان صالحًا للمجاز كما لا يخفى.

٢- مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يحتمل أن يكون راجعًا إلى لفظ «كُلٍّ» وتكون الهاء في قوله: «مُوَلِّيها» هي المفعول الأول، والثاني: محذوف، أي: موليها وجهه، قال الزجاج: وهو أكثر القول[٣].

والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة هو موليها وجهه أو نفسه، أي: مستقبلها. هذا على عموم الخطاب، فإن جعل خاصًا بالمسلمين، فالمعنى: لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلي إليها من شرق أو غرب أو غيرهما من الجهات.

ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وتعالى، والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليها إياه على ما يريد، قال الزجاج: «وكلا القولين جائز»[٤]، وقال أبو حيان: «فمعنى هو موليها على هذا التقدير: شارعها ومكلفهم بها»[٥].

وقال ابن القيم: «وأصح القولين أن المعنى هو متوجه إليها أي موليها وجهه، فالضمير راجع إلى كل، وقيل: إلى الله، أي: الله موليها إياه وليس بشيء؛ لأن الله لم يول القبلة الباطلة أبدًا ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط، بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم، وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ مشعر بصحة هذا القول، أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه»[٦].

---

١ - جامع البيان ٦٧٤/٢، ٦٧٥، تفسير ابن أبي حاتم ٢٥٦/١، زاد المسير ١٢٢/١.

٢ - جامع البيان ٦٧٦/٢.

٣ - معاني القرآن وإعرابه ٢٢٥/١.

٤ - معاني القرآن وإعرابه ٢٢٥/١.

٥ - البحر المحيط ٣٦/٢.

٦ - بدائع الفوائد ٩٦٨/٤.

أما على قراءة ابن عباس وابن عامر فلا يجوز عود الضمير إلى الله تعالى؛ لفساد المعنى، بل يعود لكل فقط على ما سبق معناه.

قال الشوكاني نقلاً عن الزجاج: «والضمير على هذه القراءة لواحد، أي: ولكل واحد من الناس قبلة الواحِدُ مَوَلَّاها. أي: مصروف إليها»[١].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ تأويلان: أحدهما: معناه: فبادروا وسارعوا إلى الأعمال الصالحة، قال الطبري: مِنَ «الِاسْتِبَاقِ»، وَهُوَ الْمُبَادَرَةُ وَالْإِسْرَاعِ.

وهو قول الربيع وابن زيد، والثاني: معناه لا تغلبوا على قبلتكم، أي: بتضييعها أو المساومة عليها، وهو قول قتادة[٢].

وعلى ذلك فيحتمل أن يكون المراد بالخيرات هنا – على وجه العموم- المبادرة إلى كل ما يصدق عليه أنه خير من الأعمال الصالحة وهو الظاهر، على أن تكون أل فيها للاستغراق.

كما يحتمل أن يكون المراد بها- على وجه الخصوص- المبادرة إلى استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق. على أن تكون أل فيها للعهد.

قال الإمام القرطبي: فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآي[٣].

وقد جمع الإمام الطبري في عبارته عند تفسيره للآية بينهما، فقال: « وإنما يعني بقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيرَاتِ﴾، أي: قد بيّنت لكم أيها المؤمنون الحقَّ، وهديتكم للقِبلة التي ضلَّت عنها اليهود والنصارى وسائرُ أهل الملل غيركم، فبادروا بالأعمال الصالحة، شكرًا لربكم، وتزوَّدوا في دنياكم لآخرتكم، فإني قد بيّنت لكم سبُل النجاة، فلا عذر لكم في التفريط، وحافظوا على قبلتكم، فلا تضيِّعوها كما ضَيَّعتها الأمم قبلكم، فتضلُّوا كما ضلت »[٤].

٥- ذهب بعض المفسرين كالإمام الفخر الرازي والقرطبي والشوكاني وغيرهم إلى أن المراد من الاستباق إلى الخيرات: المبادرة بالصلاة أول وقتها[٥]، وتعقبه الإمام الألوسي بقوله: «وفيه بعد»[٦].

قلت: إلا أن يكون من باب الإشارة على المعنى الخاص، والصحيح ما عليه أكثر المفسرين من العموم الذي يشمل أمر القبلة وغيره من الخيرات.

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن بعض المفسرين ممن غلبت عليهم النزعة الفقهية كالرازي، والقرطبي، وابن العربي وغيرهم قد عقدوا فصلًا طويلًا عند تفسيرهم للآية – مبنياً على المعنى البعيد

١ – فتح القدير ١٨١/١.

٢ – جامع البيان ١٩٦/٣، تفسير ابن أبي حاتم ٢٥٧/١، النكت والعيون ٢٠٦/١، زاد المسير ١٢٢/١.

٣ – تفسير القرطبي ١٦٥/٢.

٤ – جامع البيان ١٩٦/٣.

٥ – التفسير الكبير ١١٤/٤-١١٨، تفسير القرطبي ١٦٥/٢، فتح القدير ١٨١/١.

٦ – روح المعاني ٤١٣/١.

الذي ذكروه فيها، من المبادرة بالصلاة أول وقتها- في استدلال الإمام الشافعي بالآية على أن الصلاة أول الوقت أفضل من غير تفضيل، وعقدوا مقارنة بينه وبين مذهب أبي حنيفة في تفضيل آخر الوقت وبينهما، وبين مذهب الإمام مالك في التفضيل والتفريق بين ما يفضل فيه أول الوقت كالصبح والمغرب، وما يفضل فيه أول الوقت للفذ بخلاف الجماعة كالظهر والعصر، وما يفضل فيه التأخير كالعشاء، إلى غير ذلك من أقوال تفصيلية مع عرض لأدلة كل مذهب، وما يرد على الاستدلال من احتمالات وأخذ ورد مما لا يحتمله النص ولا المعاني التفسيرية الواردة فيه، مما يبعد القارئ عن لباب المعنى المراد من الآيات، وينقله من موضوع علم التفسير إلى موضوع علم الفقه[١].

وكان الأليق بالتفسير أن يكون الكلام في ذلك كليًّا على سبيل الإجمال الذي يفي بالمعنى التفسيري الوارد في الآية، وبيان وجه الاستدلال بها عليه، كما فعل الإمام الجصاص الحنفي في أحكام القرآن حيث قال: « وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني والله أعلم المبادرة والمسارعة إلى الطاعات، وهذا يحتج به في أن تعجيل الطاعات أفضل من تأخيرها ما لم تقم الدلالة على فضيلة التأخير نحو تعجيل الصلوات في أول أوقاتها، وتعجيل الزكاة والحج وسائر الفروض بعد حضور وقتها ووجود سببها، ويحتج به بأن الأمر على الفور، وأن جواز التأخير يحتاج إلى دلالة، وذلك أن الأمر إذا كان غير مؤقت فلا محالة عند الجميع أن فعله على الفور من الخيرات، فوجب بمضمون قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ إيجاب تعجيله؛ لأنه أمر يقتضي الوجوب »[٢].

وهو كلام جامع يستغنى به عن تفصيلٍ في غير موضعه.

- **المعنى العام للآية الكريمة**

تأتي هذه الآية للتأكيد على ما سبق من أمر القبلة، وأن لكل صاحب ملة قبلة يستقبلها ويولي وجهه إليها، وأنهم لعنادهم يلازمون قبلتهم إمعانًا في كتم الحق مع شدة معرفتهم له، فاتركوا جدالهم ودعوا أمرهم لله الذي لا يخرج فعلهم عن إرادته سبحانه وتعالى فهو موليهم إياها على التحقيق، وبادروا أنتم إلى استقبال قبلتكم وإلى جميع الخيرات والطاعات التي أمرتم بها من الفرائض والفضائل دون إبطاء أو تأخير، وذلك بالمسارعة إلى فعلها والسبق إلى أدائها على أكمل وجه وأتمه، فإن السابقين إلى الطاعات هم المقربون من السابقين إلى الجنات، وهم اعلى الخلق درجة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾[٣]، وفي معنى الآية أيضاً قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ

١ – التفسير الكبير ٤/١١٤-١١٨، تفسير القرطبي ٢/١٦٥، أحكام القرآن لابن العربي ١/٦٦-٦٨.

٢ – أحكام القرآن للجصاص ١/١١٣.

٣ – سورة الواقعة، الآيات: ١٠-١٤.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[١]، وقوله تعالى:﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]، وغيرها.

والأمر باستباق الخيرات أبلغ من الأمر بالمسارعة إليها لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق، قاله أبو السعود [٣].

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾، أي: يوم القيامة كما قال ابن عباس[٤]، كالتعليل للأمر باستباق الخيرات، وفيها من الحث على الاستباق بالتحذير والتذكير، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والإنذار والإعذار ما لا يخفى وهي كقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾[٥] فإن الموت مقدمة للبعث والحشر والجزاء على الأعمال ثوابًا وعقابًا، وكل ذلك لا شك من دوافع العمل الصالح؛ لأن من علم أن الله يطلبه صدق الطلب إليه، ومن أيقن أن الأمور بيد الله انجمع بالتوكل عليه، ومن أدرك أنه إليه راحل وأنه بين يديه موقوف أعد للأمر عدته بالمبادرة بالطاعات قبل الفوت بالموت.

وعلى هذا فإن المعنى الظاهر للآية أي: في أي موضع تكونوا وعلى أي حال قبرتم فإن الله يجمعكم ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٦]، فهي وعد لأهل الطاعة الذين استجابوا لأمر الله باستباق الخيرات ووعيد لمن خالفهم. . وهذا على عموم الخطاب للمؤمنين وغيرهم.

وقيل الخطاب خاص بالمؤمنين على معنى: في أي موضع تكونوا في صلاتكم من الجهات المختلفة المتقابلة يأت بكم الله جميعًا فيجعل صلاتكم متحدة الجهة إلى الكعبة وكأنكم حاضري المسجد الحرام[٧]، فهي مجاز عن جعل الصلاة متحدة الجهة، قال الألوسي: وليس بشيء كما لا يخفى[٨].

وقد حاول الإمام ابن القيم في تفسيره الجمع بين المعنيين فقال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تؤمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق [٩].

---

١ – سورة الحديد، آية: ٢١.

٢ – سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

٣ – إرشاد العقل السليم ١/١٧٧.

٤ – زاد المسير ١/١٢٢.

٥ – سورة النساء، من الآية: ٧٨.

٦ – سورة النجم، من الآية: ٣١.

٧ – الكشاف ١/٢٠٥.

٨ – روح المعاني ١/٤١٤.

٩ – بدائع الفوائد ٤/٩٦٨.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وهو تذييل مناسب لقدرته تعالى على الإحياء بعد الإماتة والجمع بعد التفرق والإعادة بعد التمزق، وذلك لتعلقها بجميع الممكنات، فهو تعليل لما قبله من الحكم، بذكر وصف مناسب له، أي: لأن الله تعالى لا يعجزه جمعكم ولا مجازاتكم.

- **الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة**

١- أن على المسلم أن يتبع جهة الحق قاصدًا وجهه دون التفات إلى الجهات التي يتولاها غيره من أهل الملل الأخرى أو من أهل ملته ممن ولوا وجوههم قبلهم حائدين عن طريق الإسلام وطريقته في أفكارهم ونظرياتهم ومناهجهم وعاداتهم وتقاليدهم، وغير ذلك، فلكل وجهة هو موليها. . . و﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾[١].

٢- الحث على المسارعة إلى استباق الخيرات بالمبادرة بفعل الطاعات والأعمال الصالحات والإتيان بها فور بزوغ أسبابها أو حلول أوقاتها دون تسويف أو إرجاء أو إيثار بها حتى يحرز قصب السبق فيها.

٣- تقرير عقيدة البعث والجزاء وهي إعادة إحياء الله تعالى للناس بجميع أجزاءهم مهما تفرقت بعد موتهم، وبعثهم من قبورهم للحشر والجزاء وفصل القضاء، وهي ركن من أركان الإيمان: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[٢].

٤- التذكير بالدائم بالمرجع والمصير إلى الله سبحانه وتعالى ليكون ذلك حافزًا للعبد على العمل لله بإخلاص دون تفريط فيه أو تقصير، فإنه من أيقن أنه إلى مولاه راجع وبين يديه موقوف تهيأ لذلك بمحاسبة نفسه قبل أن يحاسب والاستعداد للقاء الله عز وجل.

٥- إثبات صفة القدرة لله وعز وجل وهي صفة ذاتية أزلية ثابتة لذات الله تعالى أو قائمة بها، يتأتى بها الإيجاد والإعدام، وأنها شاملة لكل شيء.

٦- هذه الآية مما يستدل بها على أن الأمر للفورية أي: المبادرة بالأمر، من قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي: بادروا إلى فعلها.

١ – سورة الإسراء، من الآية: ٨٤.

٢ – سورة الحج، الآيتان: ٦، ٧.

المبحث السابع: تفسير الآية الثامنة

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

- مناسبة الآية الكريمة لما قبلها

تتناسب هذه الآية مع ما قبلها من حيث إنها تأكيد لما سبق من أمر القبلة وإعلام بأن المسلم مأمور بأن يتوجه إلى الكعبة حيث كان سفرًا كما أمر بالتوجه إليها حضراً، وزيادة تعظيم لشأنها بشهادة الله أنها حق ثابت منه تعالى، وتحذير وتهديد من التساهل في أمرها.

وقال أبو حيان: « لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ لِكُلٍّ وِجْهَةً يَتَوَلَّاهَا، أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُوَلِّيَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ أَيْ مَكَانٍ خَرَجَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ أَمْرٌ لَهُ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْمَدِينَةِ فَبَيَّنَ بِهَذَا الْأَمْرِ الثَّانِي تَسَاوِي الْحَالَيْنِ إِقَامَةً وَسَفَرًا فِي أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِاسْتِقْبَالِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، ثُمَّ عَطَفَ عليه: ﴿وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ ليبين مساواتهم له فِي ذَلِكَ، أَيْ فِي حَالَةِ السَّفَرِ، وَالْأُولَى فِي حَالَةِ الْإِقَامَةِ »[1].

- المسائل والأحكام

دلت هذه الآية على وجوب استقبال الكعبة في حال السفر، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي: من أي بلد خرجت للسفر فول وجهك شطر المسجد الحرام.

قال الإمام القرطبي: « قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ قِيلَ: هَذَا تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ وَاهْتِمَامٌ بِهَا، لِأَنَّ مَوْقِعَ التَّحْوِيلِ كَانَ صَعْبًا فِي نُفُوسِهِمْ جِدًّا، فَأَكَّدَ الْأَمْرَ لِيَرَى النَّاسُ الِاهْتِمَامَ بِهِ فَيَخِفُّ عَلَيْهِمْ وَتَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَوَّلِ: وَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْكَعْبَةِ، أَيْ عَايِنْهَا إِذَا صَلَّيْتَ تِلْقَاءَهَا. ثم قال: ﴿ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ﴾ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يَعْنِي وُجُوبَ الِاسْتِقْبَالِ فِي الْأَسْفَارِ، فَكَانَ هَذَا أَمْرًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ مِنْ نَوَاحِي الْأَرْضِ. قُلْتُ: هَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ فِيهِ حَمْلُ كُلِّ آيَةٍ عَلَى فَائِدَةٍ»[2].

---

١ – البحر المحيط ٣٩/٢.

٢ – تفسير القرطبي ١٦٨/٢.

- **المعنى العام للآية الكريمة**

يأتي هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه –ﷺ– بتولية وجهه شطر المسجد الحرام من حيث خرج ليؤكد حكم التحويل السابق ليثبتوا عليه، خاصة وأنه أول وقائع النسخ في الشريعة، وليضيف إليه معنى جديدًا، وهو عدم توقف التوجه إلى الكعبة على حال دون حال أو مكان دون مكان، بل هو يشمل جميع المواطن من أرجاء الأرض حضرًا وسفرًا. يقول الإمام الطبري عند تفسيره للآية: « قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، ومن أيّ موضع خرَجْت إلى أي موضع وجَّهتَ، فولِّ يا محمد وَجهك – يقول: حوِّل وَجْهك »[١].

والهاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ تعود إلى شطر المسجد أو التوجه والتولية وهما سواء، أي: إن هذا الأمر هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، ولا يحتمل النسخ، ولذا أكده بـ« إن » و«اللام» مؤكدًا به ما سبق [٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾أي: فيجازيكم بذلك أحسن الجزاء فهو وعد للمؤمنين ترغيبًا لهم في الخير، ويحتمل أن يكون تحذيرًا لهم من المخالفة، ذكره الماوردي[٣].

وقرأ أبو عمرو « يعملون» بالياء، فيكون وعيدًا للكافرين، كما لا يخفى[٤].

وفي ملحظ نكتة ذكر الرب مع الحكم على أمر القبلة بالحق، وذكر لفظ الجلالة الله مع التحذير من المخالفة يقول أبو حيان: « وَجَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾فِي المكَانَيْنِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ ﴾ فِي الْمَكَانَيْنِ، فَحَيْثُ نَبَّهَ عَلَى اسْتِدْلَالِ حِكْمَتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى أَفْعَالِهِ، ذَكَرَ الرَّبَّ الْمُقْتَضِي لِلنِّعَمِ، لِنَنْظُرَ مِنْهَا إِلَى الْمُنْعِمِ، وَنَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَيْهِ، وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ الْوَعِيدِ، ذَكَرَ لَفْظَ اللَّهِ الْمُقْتَضِي لِلْعِبَادَةِ الَّتِي مَنْ أَخَلَّ بِهَا اسْتَحَقَّ أَلِيمَ الْعَذَابِ »[٥]. وهو ملحظ حسن عند التأمل.

- **الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة**

١– أن الكعبة قبلة أهل الأرض جميعًا فيتوجه إليها المصلي وجوبًا من أي مكان، وعلى أي حال سفرًا كان أو حضرًا.

٢– أن التكرير في الأمور الهامة مطلوب للتأكيد على حكمها والتنويه بشأنها وتثبيتها في النفوس اهتمامًا بها، ودفعًا لشبهات النهي عنها حتى لا يتطرق إليها شكوك أو تساهل.

١ – جامع البيان ١٩٨/٣.

٢ – بحر العلوم ١٠٣/١، إرشاد العقل السليم ١٧٧/١، البسيط للواحدي ٤٠٦/٣.

٣ – النكت والعيون ٢٠٦/١، ٢٠٧.

٤ – التحرير والتنوير ٤٦/٢.

٥ – البحر المحيط ٣٩/٢.

٣- أن أمر تحويل القبلة بالتوجه إلى الكعبة حق مؤكد من الرب سبحانه وتعالى، وأنه ليس مجرد تلبية رغبة لرسول الله -ﷺ- بل هو تعبد محض موافقة لحكم الله وخشيته.

٤- كمال علم الله سبحانه وتعالى وشموله لكل شيء وإحاطته بكل شيء وشهوده على كل شيء، فلا تخفى عليه خافية من أعمال خلقه، مما يقتضي مراقبة العبد لله سبحانه وتعالى في كل أعماله وأحواله ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

المبحث الثامن: تفسير الآية التاسعة

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

- مناسبة الآية الكريمة لما قبلها

في هذه الآية تكرير لما سبق من أمر القبلة تأكيدًا عليه، واهتمامًا به، وتثبيتًا له في النفوس، وتوطئة لما بعدها من عِلَلٍ زُيلت بها الآيات ليتم الحديث عن تحويل القبلة ببيان وجه الحكمة فيها بيانًا شافيًا كافيًا لراغبي الهداية [١].

- سبب نزول الآية الكريمة

أخرج الإمام الطبري في تفسيره عن السدي وابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله -ﷺ- قالوا: « لما صُرف نبيّ الله -ﷺ- نحوَ الكعبة، بعد صلاته إلى بيت المقدس، قال المشركون من أهل مكة: تحيّر على محمد دينه! فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه سبيلًا ويُوشك أن يدخل في دينكم! فأنزل الله جل ثناؤه فيهم: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾»[٢]، وأخرجه أيضًا بنحوه عن قتادة وعطاء ومجاهد مختصرًا [٣].

---

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/١١٣، البحر المحيط ٢/٣٩، التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٠١.

٢ - جامع البيان ٣/٢٠٣.

٣ - جامع البيان ٣/١١٩.

- **معاني المفردات**

- حجة: الحجة: فعلة من الحج الذي هو القصد لأنها مقصودة للمخاصم، وهي في اللغة: الدليل والبرهان، وما دوفع به الخصم، يقال: حاجه محاجة وحجاجًا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجًّا: غلبه على حجته، واحتج بالشيء: اتخذه حجة، والتحاج: التخاصم(١).

قال الواحدي: «والمخاصمة يُقال لها: المحاجة؛ لقصد كل واحد من الخصمين إلى إقامة بينته، وإبطال ما في يد صاحبه»(٢).

والمراد بها هنا: الخصومة والجدل والدعوى الباطلة بغير حق فهي حجة باطلة كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ لكن أطلق عليها حجة على أنها مطلق الاحتجاج، أو هي حجة في زعمهم، أي: شبهة(٣).

قال الزجاج: «وإنما سمي ظلمه هنا حجة لأن المحتج به سمَّاه حُجة وحجته داحضة عند الله»(٤).

وقال الماوردي: «وقد ينطلق اسم الحجة على ما بطل منها؛ لإقامتها في التعلق بها مقام الصحيح حتى يظهر فسادها لمن علم، مع خفائها على من جهل»(٥).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة»(٦). أي: في صياغة الدليل والبرهان فيكون إطلاق اسم الحجة عليها مجازًا.

قال ابن عاشور: « فَالْحُجَّةُ لَا تُطْلَقُ حَقِيقَةً إِلَّا عَلَى الْبُرْهَانِ وَالدَّلِيلِ النَّاهِضِ الْمُبَكِّتِ لِلْمُخَالِفِ، وَأَمَّا إِطْلَاقُهَا عَلَى الشُّبْهَةِ فَمَجَازٌ لِأَنَّهَا تُورَدُ فِي صُورَةِ الْحُجَّةِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُجَّتُهُم داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا هُوَ فِقْهُ اللُّغَةِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ «الْكَشَّافُ»، وَأَمَّا مَا خَالَفَهُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ أَهْلِ اللُّغَةِ فَهُوَ مِنْ تَخْلِيطِ الْإِطْلَاقِ الْحَقِيقِيِّ وَالمجَازِي »(٧).

- ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: الخشية لغة: الخوف، يقال: خشيه يخشاه خشيًا وخشية: خافه(٨).

---

١ – لسان العرب ٢/٢٢٨، تاج العروس ٥/٤٦٠.

٢ – التفسير البسيط ٣/٤٠٦.

٣ – الكشف والبيان ٢/١٥، معالم التنزيل ١/١٦٥.

٤ – معاني القرآن ١/٢٢٧.

٥ – النكت والعيون ١/٢٠٧.

٦ – الكشاف ١/٢٠٦.

٧ – التحرير والتنوير ٢/٤٧.

٨ – معجم مقاييس اللغة ٢/١٨٤

فالخشية تكون بمعنى الخوف، وتنفرد عنه بأنها تأتي عن تعظيم وهيبة، وعلم بما يخشى منه لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ بخلاف الخوف فإنه يكون عن توقع مكروه، أو فوات محبوب باستعظام وغير استعظام، فالخشية أعلى مقامًا من الخوف.

قال الراغب: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾»[١].

وقال القرطبي: «الخشية أصلها طمأنينة في القلب تبعث على التوقي والخوف فزع القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سمي خوف، ومعنى الآية: التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر باطِّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى»[٢].

قلت: وعلى هذا فيمكن حمل الأولى على حقيقة معنى الخوف، والثانية على حقيقة معنى الخشية، كما يمكن حملهما على الترادف وهو الظاهر هنا.

قال الخليل بن أحمد: الخشية: الخوف[٣].

وقال أبو حيان: «والذي تدل عليه اللغة والاستعمال: أن الخشية والخوف مترادفان، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ كما قال هنا: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾»[٤]. وقال الألوسي: «والمشهور أن الخشية مرادفة للخوف، أي: فلا تخافوا الظالمين وخافوني»[٥].

- المسائل والأحكام

١- اختلف المفسرون في حكمة التكرار في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾.

والظاهر أن التكرير للتأكيد والتقرير، قال ابن كثير: «قيل: تأكيد؛ لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره»[٦].

قال أبو حيان: « وَحِكْمَةُ هَذَا التَّأْكِيدِ تَثْبِيتُ هَذَا الْحُكْمِ، وَتَقْرِيرُ نَسْخِ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، لِأَنَّ النَّسْخَ هُوَ مِنْ مَظَانِّ الْفِتْنَةِ وَالشُّبْهَةِ وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لِلطَّعْنِ فِي تَبْدِيلِ قِبْلَةٍ بِقِبْلَةٍ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ صَعْبًا عَلَيْهِمْ، فَأَكَّدَ بِذَلِكَ أَمْرَ النَّسْخِ وَثَبَّتَ»[٧].

---

١ – المفردات ص٢٨٣.

٢ – تفسير القرطبي ٢/١٧٠.

٣ – كتاب العين ٧/١٩٤.

٤ – البحر المحيط ١/٤٠٣.

٥ – روح المعاني١/٤١٦.

٦ – تفسير ابن كثير ١/٤٦٣.

٧ – البحر المحيط ٢/٣٩.

وقيل: إن التكرير لاختلاف الأحوال، قال ابن كثير: «وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول: لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني: لمن هو في مكة غائبًا عنها، والثالث: لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي، وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني: لمن هو في بقية الأمصار، والثالث: لمن خرج في الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبي»[١].

قلت: استحسنه القرطبي فقال: هذا القول أحسن من الأول[٢]- أي: إن التكرير للتأكيد؛ لأن فيه حمل كل آية على فائدة.

وقد تعقب الإمام الألوسي هذا المسلك في تبرير التكرير أو الخروج منه – أي لا تكرار- قائلًا: ولا يخفى أنه مجرد تشهٍّ لا يقوم عليه دليل[٣].

وقيل: إنما كرر هذا الحكم لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق كما ذكر ابن كثير، أو لتعدد علله كما عبر عنه الألوسي.

فالأولى: تعظيم الرسول بابتغاء مرضاته وإجابته إلى طلبه.

والثانية: الارتقاء عن مجرد الإجابة وإرضاء الرسول إلى أنه الحق من الله يحبه ويرضاه كما ذكره ابن كثير، أو جرت العادة الإلهية على أن يؤتى كل أهل ملة وجهه كما ذكر الألوسي[٤].

والثالثة: دفع حجج المخالفين من اليهود والمشركين وقطعها. . . إلى غير ذلك من أجوبة كثيرة ذكرها بعض المفسرين – كالرازي وأبي حيان وغيرهما- في حكمة التكرار[٥]، وهي تختلف من مفسر إلى إلى مفسر في العلل والعبارات، وبعضها يغني عن بعض، كما أنها قابلة للزيادة بالتجدد والتدبر، وكلها اجتهادات توفيقية لا تخلو من تعقب ونظر.

وقد اقتصر كثير من المفسرين كالواحدي في البسيط، والبغوي في معالم التنزيل، وابن عطية في المحرر الوجيز، وابن عاشور في التحرير والتنوير وغيرهم- على ما ذكره ابن عباس وهو كاف عند التأمل[٦].

٢- اختلف المفسرون في المراد بـ« الناس» و « الذين ظلموا» في قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾، فمنهم من قال: إن المراد بالناس: أهل الكتاب، والمراد بالذين ظلموا مشركوا قريش، وإليه ذهب مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدي[٧].

---

١ – تفسير ابن كثير ٤٦٣/١، التفسير الكبير ١١٨/٤، تفسير القرطبي ١٦٨/٢.

٢ – تفسير القرطبي ١٦٨/٢.

٣ – روح المعاني ٤١٥/١.

٤ – تفسير ابن كثير ٤٦٣/١، روح المعاني ٤١٥/١.

٥ – التفسير الكبير ١١٨/٤، البحر المحيط ٣٩/٢.

٦ – التفسير البسيط ٤٠٦/٣، معالم التنزيل ١٦٥/١، المحرر الوجيز ٢٢٥/١، التحرير والتنوير ٤٤/٢، ٤٥.

٧ – زاد المسير ١٢٣/١، النكت والعيون ٢٠٧/١.

وعلى هذا فحجة أهل الكتاب قولهم: يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا، وأما حجة مشركي قريش قولهم: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، وذلك على وجه الخصومة والدعوى بالباطل منهم كما ذكر الطبري [١]، والاستثناء على هذا متصل.

وقد رد الإمام ابن عطية هذا القول في تفسيره حيث قال: وقيل: المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، وقوله: « منهم» يرد هذا التأويل[٢]، كما استبعده ابن عاشور[٣].

ومنهم من قال: إن المراد بالناس: عمومهم من أهل الكتاب ومشركي العرب وغيرهم، وبالذين ظلموا: أي: من المذكورين ممن تكلم في النازلة منهم، ذكره الثعالبي[٤]، أو المراد بالناس جميعهم، وبالذين ظلموا المتعنتون منهم، والمعنى: لئلا يكون لأحد من الناس عليكم حجة إلا المعاندين، أو إلا حجة باطلة، وقال الزجاج: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح لكم، وعلى هذا فالاستثناء متصل أيضًا.

وقد اختار الإمام ابن جرير الطبري القول الأول مبينًا أن ذلك معنى الآية بإجماع الحجة من أهل التأويل، وأن ما سواه من الأقوال خطأ ظاهر الفساد والبطلان كقول من قال: إن «إلا» بمعنى « الواو» وذلك لخروج معنى الكلام من كلام العرب، وقد أبطله الزجاج أيضًا-، وقول من قال: إن «إلا» بمعنى « لكن»، وقول من قال: إنه ابتداء بمعنى إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم، وغيرها من أقوال[٥].

وقال أبو حيان: « وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ[٦]، فَالِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ، وَبَدَأَ بِهِ ابْنُ عَطِيَّةَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الزَّمَخْشَرِيُّ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَتَى أَمْكَنَ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ إِمْكَانًا حَسَنًا، كَانَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ »[٧].

وقد ذهب بعض المفسرين كالسمعاني والأخفش والفراء وغيرهم إلى أن الاستثناء منقطع، وإلا بمعنى لكن، أي: لكن الذين ظلموا يخاصمونكم ويجادلونكم بالحجة الباطلة كبرًا وعنادًا[١].

---

١ - جامع البيان ٣/٢٠٠.

٢ - المحرر الوجيز ١/٢٢٥.

٣ - التحرير والتنوير ٢/٤٦.

٤ - الجواهر الحسان ١/٣٣٢.

٥ - جامع البيان ٣/٢٠٤.

٦ - قرأ الجمهور ﴿ إلا﴾ بكسر الهمزة وتشديد اللام« أداة استثناء»، وقرأ ابن عامر وزيد بن علي وابن زيد ﴿ألا﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام على أنها للتنبيه والاستفتاح، وعلى هذه القراءة يكون: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ مبتدأ، والجملة ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ في موضع خبر. قال الألوسي: « والفاء زائدة فيه للتأكيد، وقيل: لتضمن المبتدأ معنى الشرط»، قال أبو حيان: « كأنه قيل: من يظلم من الناس فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم، واخشوني فلا تخالفوا أمري». ونقل عن أبي بكر بن مجاهد أنه قرأ: ﴿ إلى الذين﴾ أي: جعلها حرف جر بمعنى مع.

قلت: ولا يخفى بعده في المعنى.

ينظر: البحر المحيط ٢/٤٢.

٧ - البحر المحيط ٢/٤٢

قال أبو حيان: « وَمَثَارُ الْخِلَافِ هُوَ: هَلِ الْحُجَّةُ هُوَ الدَّلِيلُ وَالْبُرْهَانُ الصَّحِيحُ؟ أَوِ الْحُجَّةُ هُوَ الِاحْتِجَاجُ وَالْخُصُومَةُ؟ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ»[٢].

وقد ذكر ابن القيم أن أكثر الناس قالوا: بانقطاع الاستثناء في الآية؛ لأن الظالم لا حجة له، قال: فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ها هنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق، والحجة في كتاب الله، يراد بها نوعان: أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾، ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل. . قال: وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من الحق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وهذا في غاية التحقيق، والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني[٣].

قلت: فالظاهر أن الاستثناء متصل وهو استثناء من عموم من تكلموا في القبلة كما يقتضيه سياق الآيات مما سبق بيان معناه، والمعنى على انقطاعه ليس بعيدًا أيضاً. والله أعلم.

- المعنى العام للآية الكريمة

يؤكد الله- سبحانه وتعالي – في هذه الآية علي التوجه الي الكعبة عند الصلاة في حال السفر كالحضر دفعا لتوهم اختلاف الحالين، أو الحكمين كما في بعض العبادات، فجاء هذا التكرير تأكيدًا على الحكم وتثبيتًا له واعتناء به، وعطفًا على الجملة السابقة ليبنى عليه التعليل، ثم عطف بقوله تعالى: ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾، تعميمًا لهذا الحكم على المسلمين لئلا يتوهم فيه التخصيص بالخطاب للنبي -ﷺ-.

قال ابن عاشور: وقوله: «﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ عطف على قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ الآية، والمقصد التعميم في هذا الحكم في السفر للمسلمين لئلا يتوهم تخصيصه بالنبيء-ﷺ- وحصل من تكرير معظم الكلمات تأكيدٌ للحكم ليترتب عليه قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾، وقد تكرر الأمر باستقبال النبيء الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين، وتكرر إنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، والقصد من ذلك كله: التنويه بشأن استقبال الكعبة والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريرًا للحق في نفوس المسلمين وزيادة في الرد على المنكرين»[٤].

---

١ – تفسير السمعاني ١/١٥٤، معاني القرآن للأخفش ١/١٦٢، معاني القرآن للفراء ١/٨٩.

٢ – البحر المحيط ٢/٤٢.

٣ – بدائع الفوائد ٤/٩٧٩، ٩٨٠.

٤ – التحرير والتنوير ٢/٤٥.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآيات بهذا التعليل الذي يبين الله فيه حكمة التحويل من قطع حجة أهل الكتاب والمشركين الباطلة التي يخاصمونكم بها، فلم يعد لأحد منهم حجة يحتجون بها إلا من كان منهم ظالمًا معاندًا متعنتًا كمشركي قريش فإنهم لا يكفون عن خصومتكم والتشغيب عليكم بالدعاوى الباطلة: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ أي: لا تخافوا من مطاعنهم، فإنها داحضة باطلة، ولا منهم؛ فإنهم لا يقدرون على ضركم، قال الألوسي: أي: فلا تخافوا الظالمين لأنهم لا يقدرون على نفع ولا ضر، وجوز عود الضمير إلي الناس وفيه بعد[١].

﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾: أي: برد الأمر إليّ، وإفراد الخشية لي. قال الإمام القرطبي: «ومعنى الآية: التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر باطِّراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى»[٢].

وقال الإمام الثعلبي: « والمعنى لا تخشوهم في انصرافكم إلى الكعبة، وفي تظاهرهم عليكم في المحاجة والمحاربة، فإني وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في تركها ومخالفتها»[٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ عطف على قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ فهي علة ثانية في التحويل، وقيل: عطف على علة مقدرة، أي: واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم، والأول أظهر، وقيل: تتعلق اللام بفعل مؤخر، والتقدير: ولأتم نعمتي عليكم عرفتكم القلة.

وإتمام النعمة هو الهداية إلى القبلة، وقيل: ما أعد لهم من ثواب الطاعة بدخول الجنة[٤].

وقيل: القرآن، وقيل: محمد، وقيل: الموت على الإسلام، وقيل: رؤية الله عز وجل، والظاهر الأول كما دل عليه السياق، وقيل: بإبطال حجج المحتجين عليهم وهو متجه أيضًا.

وقال أبو حيان بعد ذكر هذه الأقوال وغيرها: «إنها أقوال صدرت مصدر المثال لا مصدر التعيين، فكل فيها نعمة»[٥].

والمراد بالإتمام هنا إعطاء الشيء وافرًا من أول الأمر، لا إتمامه بعد نقصان، كقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: امتثلهن امتثالًا تامًا، فمعنى الآية: ولتكون نعمتي نعمة وافرة في كل حال، قاله ابن عاشور [٦].

وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: تعليل ثالث لقوله: ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، معطوف على قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عاشور: «أي: أمرتكم بذلك رجاء امتثالكم فيحصل الاهتداء منكم إلى الحق»[١].

---

١ – روح المعاني ٤١٦/١.

٢ – تفسير القرطبي ١٧/٢.

٣ – الكشف والبيان ١٧/٢.

٤ – النكت والعيون ٢٠٧/١.

٥ – البحر المحيط ٤٤/٢.

٦ – التحرير والتنوير ٤٧/٢.

والمعنى على هذا: ولُّوا وجوهكم حيثما كنتم إلى المسجد الحرام حتى لا يكون لأحد من الناس عليكم حجة، ولكي أتم نعمتي عليكم باستقبال قبلة إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما ضلت عنه الأمم.

قال ابن كثير: «وبهذا كانت هذه الأمة أهدى الأمم وأفضلها»[٢]، أو رجاء الهداية مطلقًا وهو الظاهر كما قال أبو حيان[٣].

- الدروس التربوية المستفادة من الآية الكريمة

١- حث المؤمنين على لزوم قبلتهم، والصلاة إليها، والتحذير من التوجه لغيرها.

٢- أهمية التصدي بالرد على الشبه التي يوردها المعادون للدين من الكفرة والملاحدة والمنافقين وغيرهم؛ حتى تقام عليهم الحجة بإبطال مزاعمهم، وكشف أكاذيبهم، وتفنيد شبههم .. بياناً للحق، وحفظاً للدين، وتثبيتاً لأهله.

٣- الإعراض عن جدل المكابرين والمعاندين من الظالمين الذين لا يرعوون للحق ولا ينقادون له عند ظهوره، لحقد دفين في صدورهم، وهوى وبيل في نفوسهم، فلا سبيل إلى إقناعهم مهما أتيتهم بالحجج والآيات، فمجادلتهم ومحاججتهم ضرب من العبث، وإهدار للوقت والطاقة والعمر فيما لا ينفع، فتركهم في كمد غيظهم، ونار حقدهم أولى من التنفيس عنهم بمراعاتهم والانشغال بهم.

٤- عدم الخوف على الدين وأهله من هؤلاء الظلمة ومن على شاكلتهم على مر العصور وكر الدهور ممن يقومون بحملات التشكيك في الدين ومحاولاتهم اليائسة البائسة- من خلالها- في التشويش على حقائقه الناصعة، والتشويه لمؤسساته ورموزه، فإن الدين قائم ما بقي الليل والنهار لا يخبو نوره ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [٤]، فلم تفلح كل هذه الحملات المنظمة من ساعة نزول الوحي إلى يوم الناس هذا في النيل منه إلا بالقدر الذي يتحقق به التمحيص والابتلاء وتصفية الدين من المنافقين والمتشككين من الدخلاء ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٥]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٦]، وقال صلى الله عليه وسلم: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي قَائِمَةً

---

١ - التحرير والتنوير ٤٧/٢.

٢ - تفسير ابن كثير ٤٦٤/١.

٣ - البحر المحيط ٤٤/٢.

٤ - سورة التوبة، الآية: ٣٢.

٥ - سورة آل عمران، آية: ١٤١.

٦ - سورة التوبة، من الآية: ١٢٤، وآية: ١٢٥.

بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ أو خَالَفَهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ على الناس »، وقال: «لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ من أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ حتى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ على ذلك»[١]، فاللهم اجعلنا من هذه العصابة، واحشرنا في زمرة النبي وآله والصحابة.

٥- وجوب خشية الله تعالى وإفراده سبحانه وتعالى بها سرا وعلانية دون التفات القلب إلى أحد من الخلق بخوف أو خشية، وقد أكد القرآن على هذا المعنى مكررا ذلك في آياته فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[٢]، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾[٣]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[٤]، ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٥]، ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[٦]، وهذه الخشية من الله تعالى صفة من أبرز صفات رسل الله وملائكته المقربين كما قال تعالى في كتابه عن رسله: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[٧]، وقال عن ملائكته: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٨]، كما أنها من أخص صفات العلماء بالله تعالى كما في قوله: ﴿ إِنَّمَا إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٩]، وهي أيضا أول صفة من صفات أولياء الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[١٠]، ولذا قال أبو المواهب الشاذلي: الخشية شعار المتقين، وصفة الأولياء والصالحين[١١].

ومن أحسن ما قيل في تعريفها: هي انقباض القلب تحت هيبة الرب[١٢].

---

١ - صحيح مسلم، كِتَاب الْإِمَارَةِ، بَاب قول النبي صلى الله عليه وسلم «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ»، رقم ١٠٣٧.

٢ - سورة البقرة، من الآية: ١٥١.

٣ - سورة المائدة، من الآية: ٣.

٤ - سورة المائدة، من الآية: ٤٤.

٥ - سورة التوبة، من الآية: ١٣.

٦ - سورة الأحزاب، من الآية: ٣٧.

٧ - سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

٨ - سورة الأنبياء، الآيات: ٢٦-٢٨.

٩ - سورة فاطر، من الآية: ٢٨.

١٠ - سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١.

١١ - قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق، لأبي المواهب الشاذلي، ص١٤٠.

١٢ - علم القلوب، لأبي طالب المكي، ص٢٢.

قلت: وهذا يستلزم الإجلال والاحترام والمراقبة الدائمة لله عز وجل، وهي عين مقام الإحسان المنشود، ولذا رتب الله سبحانه وتعالى عليها ما رتب من الفوز والرضا والهداية، والبشرى بالمغفرة والأجر الكريم، كما دلت عليه آيات الذكر الحكيم ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١)، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(٢)، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(٣)، ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾(٤)، ولذا كانت غاية منشودة مقصودة بدعاء المؤمنين «واقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك».. اللهم آمين.

٦- شهود المنة من الله سبحانه وتعالى بإتمامه نعمته على نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بهذه الشريعة الخاصة وهي استقبالهم الكعبة قبلة سيدنا إبراهيم عليه السلام بدلا من بيت المقدس، ثم إن تمام النعمة من الله تعالى عليهم بهذه الشريعة الخاصة التي بها تمام الملة الحنيفية، ينضاف إلى نعم أخرى كثيرة أتمها الله عليهم على حسب حاجتهم، وبما يتناسب مع تغير الحال، واختلاف الزمان والمكان إلى أن أتم الله تعالى النعمة العامة عليهم بكمال الدين كله، وهي النعمة العظمى التي تنتظم تحتها جميع النعم والمشار إليها بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾(٥) وبهذا يتعلم المسلم شهود المنة بتمام نعم الله تعالى عليه دائماً مما يستوجب دوام الشكر في كل نفس من أنفاسه، فضلاً عن غيرها؛ لأن كل نفس يتنفسه العبد نعمة من أخفى نعم الله تعالى عليه، فقد نقل الإمام القرطبي في تفسيره عن سيدنا داود عليه السلام لما قال الله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾(٦) قال: « كيف أشكرك يا رب والشكر نعمة منك؟! قال: الآن قد عرفتني وشكرتني إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة، قال: يا رب فأرني أخفى نعمك علي، قال: يا داود تنفس، فتنفس داود، فقال الله تعالى: من يحصي هذه النعمة الليل والنهار؟!» (٧).

٧- كمال عناية الله سبحانه وتعالى بهداية خلقه إلى سبيله الواضح وصراطه المستقيم، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وتوضيح المعالم بإقامة الحجج وإزالة العلل، ونصب الأدلة، وتشريع الشرائع، وسن الأحكام، وإظهار الشعائر وغير ذلك مما يرجى معه هداية الخلق الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ هنا وفي مواضع أخرى من القرآن فالترجي

---

١ – سورة النور، الأية: ٥٢.

٢ – سورة البينة، من ألاية: ٨.

٣ – سورة التوبة، الآية: ١٨.

٤ – سورة يس، الآية: ١١.

٥ – سورة المائدة، من الآية: ٣.

٦ – سورة سبأ، من الآية: ١٣.

٧ – تفسير القرطبي ٣٩٨/١.

في حق البشر، أو بالنسبة للمخاطبين لاستحالته في حق الله سبحانه وتعالى، ولذا قيل: « لعلَّ، وعسى من الله واجب»[١].

والمعني: لتكونوا على رجاء إدامة هدايتي إياكم، أو لإرادتي هدايتكم قال الإمام أبو السعود: « وفي التعبير عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعة للترجي على طريقة الاستعارةِ التبعية من الدلالةِ عَلى كمالِ العناية بالهداية مالا يخفى»[٢].

٨- أن يحرص العبد دائماً على طلب هداية الله سبحانه وتعالى آخذا بأسبابها، سالكاً سبلها، باقتحام موانعها، وقطع عقباتها، للفوز بثمراتها، ونيل درجاتها. . مستعيناً على ذلك بالدعاء والرجاء، متبرئا من كل حول وقوة مرددا في قلبه قول الرسول صلى الله عليه وسلم[٣]:

اللهم لَوْلَا أنت ما اهْتَدَيْنَا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْـنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إن لَاقَيْنَا

اللـهم آمين

١ – معالم التنزيل ١٨٢/١.

٢ – إرشاد العقل السليم ١٧٨/١.

٣ – صحيح البخاري، كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَاب الرَّجَزِ في الْحَرْبِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ في حَفْرِ الْخَنْدَقِ رقم٢٨٧٠، مسلم، كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَاب غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ وَهِيَ الْخَنْدَقُ رقم١٨٠٣.

خاتمة البحث: وتشتمل على أهم النتائج وثبت المراجع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان الأدومان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فقد أنعم الله تعالى عليَّ بإتمام هذا البحث الذي راعيت فيه سهولة اللفظ، ودقة العبارة، وأمانة النقل، وعمق التحليل، وموضوعية الترجيح، وقد توصلت من خلاله إلى **عدة نتائج أجملها فيما يلي:**

١- المراد بالسفهاء في الآية الكريمة كل من عاب تحويل القبلة سواء أكان من اليهود، أو من المنافقين، أو من مشركي مكة فهم جميعاً شركاء في هذا الوصف الذي أطلقه القرآن عليهم، ويلحق بهؤلاء السفهاء كل من يعترض على أقضية الله تعالى بالاستفهام الإنكاري سواء في نفسه، أو في خلق الله تعالى، فالملك كله لله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لأمره، فالتسليم أسلم، والتعظيم رد الأمر إلى من هو أحكم وأعلم.

٢- « أل» في قوله تعالى: ﴿ السُّفَهَاءُ﴾ للاستغراق أي: سيقول هذا القول كل سفيه خفيف العقل، قليل الرشد في الدين والدنيا، وقد عبر عنهم بالسفهاء مع كونهم في الظاهر عقلاء تقليلا لشأنهم، وتحقيرا لقولهم الذي لا يقوله إلا كل متعنت ضال، كما أنك قد تصف إنسانا بالجنون لفعل غير رشيد وإن كان يندرج في زمرة العقلاء، أما المجنون حقيقة فلا يلام على قوله، ولا يؤاخذ على فعله.

٣- المراد بالقبلة التي كانوا عليها في قوله تعالى: ﴿ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ هي: قبلة بيت المقدس، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إليها في صلاته بمكة، ثم توجَّه إليها بالمدينة سبعة عشر شهرا.

٤- الذي عليه الجمهور وهو مذهب ابن عباس- رضي الله عنهما- أن توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس كان واجبا عليه بأمر الله تعالى ووحيه، وليس بتخيير ولا رأي عن اجتهاد له صلى الله عليه وسلم.

٥- أن المقصود من التوجه أن نتوجه حيث وجهنا الله سبحانه وتعالى، فليست العبرة التوجه إلى مشرق، أو مغرب، ولكن في سرعة التوجه ذاته، وامتثال الأمر بالإيمان.

٦- أن دين الإسلام هو صراط الله المستقيم، ودينه القويم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، فهو دين الوسطية والاعتدال.

٧- استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ على حجية الإجماع ووجوب الحكم به، وفيه نظر؛ لعدم النص عليه صراحة فيبقى محتملا، لكنه مما يستأنس به في ذلك، وإنما الآية نص في أفضلية الأمة وخيريتها على سائر الأمم باتفاق، فيبقى على كل مسلم أن يراعي المحافظة على حيثيات خيريته، وانتسابه لهذه الأمة، وذلك بالاستقامة دون إفراط بغلو أو تفريط بتساهل.

٨- اتفق العلماء على أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس، والمراد ب ﴿إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، وقد سمى الله تعالى الصلاة إيمانا؛ لأنها دليل عليه وسبيل إليه كما لا يخفى.

٩- « قد» في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَى**﴾ حرف تحقيق، أي: قد رأينا، وجيء بالفعل المضارع للدلالة على التجدد، وقيل: قد للتكثير، أي: كثيرا ما نرى تردد وجهك في السماء، وإنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية وهو التقلب؛ لأن من رفع بصره إلى السماء مرة واحدة لا يقال فيه قلب بصره في السماء، وإنما يقال قلب إذا ردد، وفي هذا رد على من جعل « قد» هنا للتقليل زعما منه أن وقوع التقلب كان قليلا ليدل على كمال أدبه صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى بعده.

١٠- أن المراد بالتقلب في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ هو تقلب البصر تطلعا للوحي، والوجه إنما يتقلب بتقلب البصر، فكني بالوجه عن البصر؛ لأنه كله، وهذا يتضمن الدعاء بالقلب، والطلب من الله تعالى وإن لم يتلفظ به، ويشير إلى ذلك توجهه نحو السماء قبلة الدعاء، وفي ذلك من كمال أدبه، وقوة يقينه ما لا يخفى، أو ذكر الوجه لأنه أشرَفُ الأعضاءِ وهو الذي يُقَلْبه السائلُ في حاجته.

١١- أن التعبير بقوله تعالى: ﴿ تَرْضَاهَا﴾ بدل تحبها للدلالة على أن حبه- صلى الله عليه وسلم- للاتجاه نحو الكعبة لم يكن عن هوى مجرد عن تعقل مقاصد المصلحة الشرعية الراجحة في اختياره من مخالفة اليهود، وكراهة موافقتهم، أو اتباع قبلة أبيه إبراهيم-عليه السلام- أو حرصه الشديد على إسلام قومه، وقبلة الكعبة أدعى لاستمالتهم إليه وكل هذا من المصالح الدينية كما لا يخفى.

١٢- أن قوله تعالى: ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ لا يعني ولا يلزم منه أنه -صلى الله عليه وسلم- كان غير راض عن توجهه إلى بيت المقدس أو كاره له؛ إذ هذا يستحيل في حقه- صلى الله عليه وسلم- ولا يليق بمقام النبوة الذي يقتضي الامتثال الأكمل، والرضا الأتم لما يأمره الله تعالى به، ويدعوه إليه، وإنما كان حبه وكرهه -صلى الله عليه وسلم- في هذا الأمر مرتبط به دوافع وآثار دينية لا دخل له بها، ولا تثريب عليه فيها.

١٣- بيان مسارعة مولانا-جل جلاله-في إجابة طلب نبيه صلى الله عليه وسلم؛ إذ لم يلبث الوعد ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أن تحول إلى أمر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفي هذا من التعظيم والعناية بالنبي صلى الله عليه وسلم ما لا يعلم قدره، ولا يدرك كنه معناه.

١٤- جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ للنبي – صلى الله عليه وسلم- متبوعا بخطاب مماثل لأمته، مع أن أمته تابعة له في ذلك؛ حيث إن الأصل في التشريعات كذلك ما لم يرد تخصيص لأحدهما، وذلك دفعا لإيهام خصوصية الحكم أو تقييده بمدة أو مكان.

١٥- أن المقصود بالمسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الكعبة، وقد يذكر المسجد الحرام ويراد به المسجد كله، وقد يراد به مكة كلها، وفي التعبير عن الكعبة

بالمسجد الحرام هنا إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة إلا لمن عاينها فالواجب عليه استقبالها، ومن خفيت عليه تحراها ما استطاع.

١٦- أن قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ دليل على وجوب استقبال القبلة عند إقامة الصلاة في الفرض والنافلة، فهو شرط من شروط صحتها، إلا في حالتي الخوف من العدو، وصلاة النافلة في السفر على الراحلة، ويلحق بهما العاجز عن استقبال القبلة، ويجمع ذلك كله شرطان: الأمن، والقدرة.

١٧- وهذه الآية تدل أيضاً على أن المصلِّي يستحب له أن ينظر أمامه في صلاته، لا إلى موضع سجوده؛ لأن الذي ينظر إلى موضع سجوده لا يكون متحققا بجعل وجهه تلقاء المسجد الحرام على الوجه الأتم.

١٨- جمهور العلماء على أن القبلة أول ناسخ من القرآن، وقيل: أن الله تعالى نسخ قبلة بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في الصلاة إلا أن النبي – صلى الله عليه وسلم- كان يختار التوجه إلى بيت المقدس، ثم إنه تعالى نسخ ذلك بتعيين الكعبة أي بقوله: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وعلى هذا فالآية الأولى نسخت قبلة بيت المقدس، والآية الثانية نسخت الآية الأولى، فالنسخ الأول من نسخ السنة بالقرآن، والنسخ الثاني من نسخ القرآن بالقرآن، وهما من أنواع النسخ عند من قال به، والآية دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن خلافا لمن أنكر ذلك.

١٩- أن الوجه أشرف الأعضاء، وأجمعها للحواس، ولذا عبر به عن تقلب البصر تطلعاً للوحي ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

٢٠- جواز الدعاء بتوجه القلب إلى الرب سبحانه وتعالى دون تلفظ باللسان.

٢١- أن حب الوطن بالحنين إليه وتذكره، والارتباط به وجدانياً من كمال الوفاء.

٢٢- سَعة رحمة الله تعالى ورحمته بعباده إذ يكلفهم بما في وسعهم، ويرفع عنهم ما لا يتناسب مع طاقتهم البشرية، فلا يحاسبهم ولا يؤاخذهم إلا على ما يبلغهم.

٢٣- صحة صلاة من صلى إلى غير القبلة مجتهداً، ما دام لا يعلم ذلك، وليس عليه إعادة الصلاة عند معرفته بالجهة الصحيحة.

٢٤- أن القبلة مظهر من أهم مظاهر الوحدة في الأمة الإسلامية، ومعلم من أهم معالمها.

٢٥- إثبات حرمة مكة المكرمة.

٢٦- أن المقصود بأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود من سكان المدينة الذين شنعوا في أمر القبلة، وإنما ذكر النصارى ضمن الذين أوتوا الكتاب وإن لم يشتركوا لبيان أنهم واليهود في ذلك سواء، وعبر عنهم بأهل الكتاب تعريضًا بهم وتشنيعًا عليهم

٢٧- بيان كمال حرصه -ﷺ- على هداية الخلق بإقامة الأدلة وسوق كل الحجج والبراهين لبيان الحق لهم حتى يؤمنوا.

٢٨- إن المراد بالذين أوتوا الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ عموم أهل الكتاب العلماء والأتباع، وهو لا يتنافى مع إيمان الأفراد.

٢٩- أن المراد بالبعضين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾: من هو باق على دينه من أهل الكتاب، وهو الظاهر خلافًا لمن جعل أحد البعضين من آمن منهم، والثاني: من بقي على دينه ولا يخفى بعده؛ إذ هو من قبيل تحصيل الحاصل.

٣٠- أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يجوز أن يكون للنبي-ﷺ- وذلك لا يقتضي وقوع ذلك منه؛ لأنه مستحيل والمعلق على المستحيل مستحيل.

٣١- أن الأظهر في المراد بـ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ علماؤهم، فهم الذين يعرفونه من كتابهم كما يعرفونه أبناؤهم، فاللفظ وإن كان عامًا لكنه مختص بهم.

٣٢- أن الراجح في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿يعرفونه﴾ أنه يعود إلى النبي -ﷺ-.

٣٣- أن الإنسان لا يؤاخذ بالخطأ، إلا إذا تعمده بعد إقامة الحجة عليه فيه، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

٣٤- أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم، وفي هذا تنويه بشأنهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

٣٥- أن أمر القبلة من الأمور التي لا يتطرق إليه نسخ أبداً ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

٣٦- جواز تعليق الحكم على شرط لا يتحقق ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

٣٧- لفظ الأبناء في قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ عام شامل في الذكور والإناث كلفظ الأولاد ولا يطلق على أحدهما بعينه إلا بقرينة السياق، وعليه فالإناث يدخلن في الخطاب أصلا أو تغليبا.

٣٨- أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دون تعميم يؤصل لقاعدة من أهم قواعد الإنصاف، والحكم على من نختلف معهم؛ حيث لم تحكم على أهل الكتاب جميعاً حكماً واحداً بكتم الحق، بل قيدته بذكر فريق منهم حفظاً لصورة من أظهر الحق منهم، وإثباتاً لحقه في ألا يوصف بغير وصفه، وهو ما يحتاجه كثير من المسلمين اليوم – سيما العلماء منهم- في التعامل حتى مع أنفسهم.

٣٩- أن الحق في أمور الدين والعقيدة هو ما ثبت أنه من عند الله سبحانه وتعالى، وغير ذلك باطل لا شك فيه.

٤٠- دل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ على جواز النهي عن الشيء مع استحالة وقوعه ممن نهي عنه.

٤١- أن الشك ينافي الحق.

٤٢- أن ما ذهب إليه بعض المفسرين كالإمام الفخر الرازي والقرطبي والشوكاني وغيرهم إلى أن المراد من الاستباق إلى الخيرات: المبادرة بالصلاة أول وقتها، فيه بعد، إلا أن يكون من باب

الإشارة على المعنى الخاص، والصحيح ما عليه أكثر المفسرين من العموم الذي يشمل أمر القبلة وغيره من الخيرات.

٤٣- أن استطراد كثير من المفسرين ممن غلبت عليهم النزعة الفقهية في سرد المسائل الفقهية والأصولية وعقد المسائل المقارنة في ثنايا تفسيرهم للآيات مما قد يبعد القارئ عن المعنى المراد تفسيره، وكان الأليق بالتفسير أن يكون الكلام في ذلك كليًّا على سبيل الإجمال الذي يفي بالمعنى التفسيري الوارد في الآية، وبيان وجه الاستدلال بها عليه.

٤٤- تقرير عقيدة البعث والجزاء ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٤٥- إثبات صفة القدرة لله عز وجل وهي صفة أزلية ثابتة لذات الله تعالى، أو قائمة بها، وشمولها لكل شيء.

٤٦- أن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ مما يستدل به على أن الأمر للفورية.

٤٧- أن قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ رد على الجبرية القائلين بنفي أعمال العباد، وأنهم مجبورون عليها.

٤٨- أن التكرار في الأمور الهامة مطلوب للتأكيد عليها، والتنويه بشأنها، وتثبيتها في النفوس اهتماماً بها.

٤٩- أهمية التصدي بالرد على الشبه التي يوردها المعادون للدين من الكفرة، والملاحدة، والمنافقين وغيرهم حتى تقام عليهم الحجة بإبطال مزاعمهم، وتفنيد شبههم بياناً للحق، وحفظاً للدين وأهله.

٥٠- الإعراض عن جدل المكابرين والمعاندين الذين لا ينقادون للحق مع ظهوره، فمجادلتهم ضرب من العبث، وإهدار للوقت، والطاقة، والعمر فيما لا ينفع.

٥١- عدم الخوف على الدين وأهله من هؤلاء الظلمة الذين يقومون بحملات التشكيك في الدين على مر العصور، ومحاولتهم اليائسة البائسة- من خلالها- في التشويش على حقائقه الناصعة، والتشويه لمؤسساته ورموزه، فإن الدين قائم ما بقي الليل والنهار لا يخبو نوره، ولا تنطفأ ناره.

٥٢- وجوب خشية الله تعالى وإفراده سبحانه وتعالى بها سرا وعلانية دون التفات القلب إلى أحد من الخلق بخوف أو خشية.

٥٣- وجوب شهود المنة من الله سبحانه وتعالى بإتمامه نعمته على نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بهذه الشريعة الخاصة وهي استقبالهم للكعبة قبلة سيدنا إبراهيم عليه السلام بدلا من بيت المقدس، ثم إن تمام النعمة من الله تعالى عليهم بهذه الشريعة الخاصة التي بها تمام الملة الحنيفية، وهي النعمة العظمى التي تنتظم تحتها جميع النعم والمشار إليها بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾.

٥٤- أنه يجب على العبد أن يحرص دائماً على طلب هداية الله سبحانه وتعالى آخذا بأسبابها، سالكاً سبلها، باقتحام موانعها، وقطع عقباتها، للفوز بثمراتها، ونيل درجاتها، مستعيناً على ذلك بالدعاء والرجاء، متبرئا من كل حول وقوة، فاللهم لا حول ولا قوة لنا إلا بك.

والحمد لله رب العالمين

ثانيا: ثبت المراجع والمصادر

١- أحكام القرآن لابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعاقري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ت: محمد عبد القادر عطا.

٢- أحكام القرآن للجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ت: عبد السلام محمد علي شاهين.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، ط: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان.

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي.

٦- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، ط: دار الفكر- بيروت، ت: د/محمود مطرجي.

٧- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ط: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ، ت: صدقي محمد جميل.

٨- البحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي، ط: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ، ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان.

٩- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - ١٤١٦ - ١٩٩٦، الطبعة: الأولى، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.

١٠- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء، ط: دار الفضيلة- مصر، ت: عبد القادر أحمد عطا، وأحمد عبد التواب عوض.

١١- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ط: دار الهداية - مصر، ت: مجموعة من المحققين.

١٢- تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

١٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

١٤- تحفة الفقهاء، علاء الدين السمرقندي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى.
١٥- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ط: دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤هـ، الطبعة: الأولى، ت: عبد الله بن عبد الرحمن السعد.
١٦- تفسير ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ، ت: أسعد محمد الطيب.
١٧- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ت: سامي بن محمد سلامة.
١٨- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، ط: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.
١٩- تفسير الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط: الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ت: د/ محمد عبد العزيز بسيوني.
٢٠- تفسير السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني، ط: الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم.
٢١- تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.
٢٢- التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
٢٣- جامع البيان في تأويل آي القرآن، حمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ط: مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ت: أحمد محمد شاكر.
٢٤- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، ط: الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، ت: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.
٢٥- حاشية الكشاف ضمن تفسير الكشاف، لمحمود بن المنير الإسكندري، ط: دار الكتاب العربي - بيروت

٢٦- الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.
٢٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ط: دار القلم- دمشق، ت: د/ أحمد محمد الخراط.
٢٩- دَرْجُ الدُّرر في تَفِسيرِ الآيِ والسُّوَر، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، ط: دار الفكر - عمان، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ت: طلعت صلاح الفرحان، ومحمد أديب شكور أمرير.
٣٠- الرسالة القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: لا يوجد، تحقيق: خليل المنصور.
٣١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ، ت: علي عبد الباري عطية.
٣٢- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ، ت: عبد الرزاق المهدي.
٣٣- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار النشر: دار الفكر - بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٤- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، ط: دار الفكر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.
٣٥- سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت ت: أحمد محمد شاكر وآخرون.
٣٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، ط: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ت: أحمد عبد الغفور عطار.
٣٧- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ط: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، ت: د. مصطفى ديب البغا.
٣٨- الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ، ط: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
٣٩- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
٤٠- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ، ت: الشيخ زكريا عميرات.

٤١- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
٤٢- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ت: إياد محمد الغوج، د/جميل بني عطا.
٤٣- الكتاب لسيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، ط: مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ت: عبد السلام محمد هارون.
٤٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ط: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٤٥- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، الأستاذ نظير الساعدي.
٤٦- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، ت: عدنان درويش - محمد المصري.
٤٧- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ت: محمد علي شاهين.
٤٨- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، ط: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض.
٤٩- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى.
٥٠- متن الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري، ط: دار الإيمان - دمشق - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م، الطبعة: الأولى، ت: محمد عبد الرحيم.
٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد.
٥٢- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، ت: عبد الحميد هنداوي.
٥٣- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، ط: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة، ت: محمود خاطر.

٥٤- مختصر اختلاف العلماء، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، ط: دار البشائر الإسلامية – بيروت – ١٤١٧، الطبعة: الثانية، ت: د/عبد الله نذير أحمد.
٥٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، ط: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م، ت: يوسف علي بديوي، محيي الدين ديب مستو.
٥٦- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، ت: مصطفى عبد القادر عطا.
٥٧- مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، ط: مكتبة الرشد – الرياض – ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، ت: كمال يوسف الحوت.
٥٨- معاني القرآن للأخفش، أبي الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م، ت: د/ هدى محمود قراعة.
٥٩- عاني القرآن للفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، ط: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة: الأولى، ت: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل.
٦٠- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ط: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ت: عبد الجليل عبده شلبي.
٦١- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، ط: دار الدعوة، ت: مجمع اللغة العربية.
٦٢- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ط: دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، ت: عبد السلام محمد هارون.
٦٣- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، ط: دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥، الطبعة: الأولى.
٦٤- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ، ت: صفوان عدنان الداودي.
٦٥- موسوعة أقوال الدارقطني في رجال الحديث وعلله، مجموعة من المؤلفين: د/ محمد مهدي المسلمي – أشرف منصور عبد الرحمن – عصام عبد الهادي محمود – أحمد عبد الرزاق عيد – أيمن إبراهيم الزاملي – محمود محمد خليل، ط: عالم الكتب للنشر والتوزيع – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١ م.
٦٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،: برهان الدين البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٧- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

٦٨- نواهد الأبكار وشوراد الأفكار، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ط: جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م.

٦٩- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، ط: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي.